19me ; annéeNo 913

Le Caire - 1 — 1 — 1951

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٣٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٩١٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ — أول يناير سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

كيف أعلن محمد حقوق الإنسان



فى شهر ديسمبر من عام ١٩٤٩ ، وفى فورة من فورات النفاق الدولي ، أعلن الساسة فى (هيئة الأمم المتحدة) حقوق الإنسان ؛ ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الأولى لهذا الاعلان منذ عشرين يوما ، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم . ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين) أعلن قادة الثورة الفرنسية هـذه الحقوق عام ١٧٨٩ وصاغوها فى سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة ١٧٩١ .

ومن السهل على الذهن الاجتماعى أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد القسس ، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحدة لهذه الحقوق بعد أن رأت الحوت الشيوعى معترضاً فى خضم الحياة وقد فغر فاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ . ولكن من الصعب على الذهن الناقد أن يدرك ما يريده الأوربيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذى أعلنوا له هذه الحقوق وظاهروا عليه هذا العطف . أغلب الظن أنهم يريدون بانسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذى تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون ؛ أما الانسان الأحمر فى أمريكا فهو فى رأى أبناء العم سام ضرب مهين من الخلق عليه كل واجب وليس له أى حق ؛ ولكن وجوده المعدوم فى بلاد الديمقراطيين الأحرار لا يزال فى رأى المسلمين أغلظ كذبة فى دستور الديمقراطية بواشنطون ، وأكبر لعنة على تمثال الحرية بنيويورك ! وأما الانسان الأسمر والأسود فى أفريقا ، أو الأخضر والأصفر فى آسيا ، فهو فى نظر الفرنسيين والانجليز نوع من بهيمة الأنعام ، وجنس من المواد الخام ، يولد ليسخر ، ويروّض ليستثمر ، وينتج ليُستهلك ؛ وهو موضوع الخصومة فى السلم ، ومادة الغنيمة فى الحرب ؛ ولكن حقه المهضوم بين أمم العلم والدستور لا يزال فى نظر المسلمين اتهاماً لصحة الثقافة فى جامعات فرنسا ،

وإنكارا لحقيقة العدل فى برلمان انجلترا ! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الانسان فى القديم والحديث اضطرب الأساس وفسد القياس واختلف التقدير ؛ فلكل جنس وزنه ، ولكل لون قيمته ، ولكل دين حسابه . ومدار الوزن والتقويم والحساب على قدرة الانسان وعجزه ، لا على انسانيته وفضله . فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة ، والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية . والسيادة حق ليس بإزائه واجب ، والعبودية واجب ليس بإزائه حق

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الانسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد . ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الانسان بهذا المعنى لأنه رسول الله . والله وحده هو الذى ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة

أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبين ولا من وطن معين ؛ انما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربى والفارسى والرومى والتركى والهندى والصينى والبربرى والحبشى على شرع واحد هو الاسلام ، وتحت تاج واحد هو الخلافة . والاسلام الذى يقول شارعه العظيم « ولقد كرمنا بنى آدم » لم يخص بالتكريم لوناً دون لون ، ولا طبقة دون طبقة . إنما رباً بنى آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان ، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سوائم والعدم ! وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض وما سواهم خدم ! وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان وما عداهم عجم ! وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والراجبوت من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوى الأمر بين رأس وكتف وقدم ! وكان النظام الاجتماعى كله قائما على الامتياز بالجنس أو بالدين ، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال ، حتى جاء محمد اليتيم الفقير الأمى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؛ فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه : « إنما المؤمنون إخوة » « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأكدها بقوله صلوات الله عليه : « الناس سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب »

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء لا يملكان ولا يتصرفان ، فضيق الإسلام حدود الرق ، وجعل كفارة الذنوب على الصدقة والعتق ، وسوى بين الرجال والنساء فى الحق والواجب

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى : « لا اكراه فى الدين وقد تبين الرشد من الغى » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ » واحترم عقائد أهل الكتاب ، وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء ، وأمر الولاة أن يرعوهم ويعطفوا عليهم ، وأوصى المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم ثم أعلن الإسلام حرية الفكر والرأى فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد ، وأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب ، ولأهل الجدل حتى كثرت الفرق ، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب . وسمح لأهل الذمة وأصحاب النحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها فى المدارس والمجالس والبيع ، ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتى هى أحسن

ثم احترم الملكية وثبت لها الأصول ، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل . وهذه هى جماع الحقوق الطبيعية التى كفلها الاسلام للانسان على اختلاف ألوانه وأوطانه وألسنته . أعلنها محمد بن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، والأمر يومئذ للجهالة والرأى للضلالة ، والحكم للطغيان ، فأنقذ بها الانسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة ، ثم أكرمها ونماها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد . ولكن الانسانية وا أسفاه أرضلت هذه السبيل ! أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق ، وهم يسرون فى أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق !

احمد حسن الزيات

هذا بيان للناس

وهدى وموعظة للمتقين

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »



يقاسي العالم اليوم ألواناً من الشرور والمفاسد، ويكابد أصنافاً من الآلام والمتاعب ، تقض عليه مضاجع الأمن والاستقرار ، وتزلزل كيان الطمأنينة والسعادة في الأفراد والجماعة . وما مثل الناس في هذا الزمان إلا كمثل قوم في سفينة أخذتها الأعاصير من كل جانب ، واضطربت في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، يكاد اليم يبتلعها بمن فيها ! أو كمثل قوم حوصروا بالنار ذات الوقود في بيت مغلق النوافذ وقد تقطعت بهم الأسباب ، وجمدوا في أماكنهم شاخصة أبصارهم يشهدون التهام النار لمتاعهم ونفائسهم وأموالهم وأبنائهم وأنفسهم ، ثم لا يستطيعون أن يحركوا ساكناً، ولا يلتمسوا طريقاً للخلاص ، سوى الصياح والعويل والاستغاثة من الخطر الذي داهمهم وحل بدارهم ! !

وليس لهذه النكبة فيما يرى عقلاء العالم من سر سوى انسياق الناس في حياتهم مع نظم وضعها الإنسان وأملتها عليه الشهوات والنزعات ، لم تبن على مصالح البشر ولم يلاحظ فيها مقتضى الطبيعة الإنسانية التي تفترض المساواة في الحقوق والواجبات، فجاءت مختلفة باختلاف بواعثها ، مضطربة باضطراب ألوانها وغاياتها ، متنازعة بالعصبية لها ، والتناحر عليها ، كل أمة تعمل جاهدة على أن يسود نظامها ، وتعلو كلمتها ، ويستقر في العالم سلطانها ، وتصبح ذات السيادة المطلقة ، والكلمة النافذة ، فمن نازية إلى فاشية إلى شيوعية إلى رأسمالية إلى ديمقراطية ، إلى اشتراكية ، إلى غير ذلك من ألوان ما أنزل الله بها من سلطان

فمن الطبيعي وهذا شأنها وشأن واضعيها والمتعصبين لها أن تفضي بالعالم إلى هذا الشر المتفاقم ، وأن توقد نيران الحروب في جميع أرجائه ، ما بين حرب تصلى الشعوب نيرانها ، وتدمر البلاد والديار أسلحتها ، وحرب باردة تأتي على الهدوء والسكينة؛ فتزلزل الأمن والقرار من القلوب ، وتثير الخوف والفزع في النفوس، وتهيج في المجتمع ألوان النفاق والأخلاق الفاسدة، وتحل عرى الجماعة ؛ فيصبح الأخ عدوا لأخيه ، والأمة شيعاً وأحزاباً يتربص كل بالآخرين دوائر السوء ، ويقدر كل منهم أن خيره كله في نجاته هو ، وشر الآخرين . وأنه ليس عليه لوطنه ، ولا لمواطنيه وبني جنسه شيء من الحقوق ينبعث بها الشعور من قلبه ، ويتحقق بها معنى التعاطف والتراحم

ولعمري أن العالم سيظل في هذه الحيرة ، وهذا الاضطراب بل في هذا البحر اللجي من الشرور والمفاسد، لا يجد راحة مادية، ولا يحس راحة روحية ، ولا يتنسم شيئاً من النسيم الذي يبشر بالخلاص والنجاة ، سيظل كذلك ما ظل متمسكا بأهداب هذه النظم التي اخترعها الانسان ، واتخذها أساساً لحياته فما ذاق منها إلا الخوف والجوع ، والظلم والطغيان

طريق الخلاص :

وقد أقلقت هذه الحالة كثيراً من مفكري الأمم في الشرق والغرب ومدعي حب السلام والأمن في العالم ، ولم يبق أحد له

فكر سليم وقلب رحيم إلا أشفق على الإنسانية من عواقب ما تتخبط فيه من ظلمات، وأخذوا يفكرون في طريق الخلاص فتفتقت بعض الأذهان عن وسائل زعموها طريقاً للسلم العالمي المنشود، وما هي في واقعها إلا تلبية لنزعات الطغيان الكامن في النفوس الذي يدين بالأثرة ولا يعبأ بمصالح الأمم، ولا يكترث بما يصيب الإنسانية من ويلات

وهذا هو سلامهم لا يزال بعد اتخاذ هذه الصور يتعثر في خطواته، ويلتوي في مشيته، والشر يتكون ويقوى في خلال خطواته: تنطلق أبواق الدعاية وتعقد المؤتمرات، وتوضع المبادئ وتعقد المجالس، ثم لا تلبث الدعاية أن تخفق، والمؤتمرات أن تنفض، والمبادئ أن تتبخر، والمجالس أن تنحل، وتصبح ردهات هذه المنشآت ميداناً للارعاد، والإبراق، وتتطاير شرر الطغيان على الضعفاء. والويل كل الويل لمن لا تحميه قوة، أو يرى بنفسه في أحضان قوي مستعبد. ولا عجب فإن الطغيان الذي تندلع به نيران الحروب الفتاكة هو الذي يتسلط على تلك الرءوس التي حاولت أن تستر طغيانها باسم التفكير في وسائل السلم العالمي؛ فهو سلم تذوق الإنسانية من مرارته مثل ما ذاقت وتذوق من مرارة الحرب، فكلاهما وليد الطغيان، وكلاهما وسيلة من وسائل التخريب والتدمير والقلق والاضطراب.

ومحال أن تجد الإنسانية علاج هذا الطغيان فيما وضعه الإنسان أو يضعه بروح الأثرة والزهو والغرور؛ إنما العلاج الحق في الرجوع إلى ذلك العلاج الإلهي الخالد الذي يستند في صدوره وتنظيمه وإبداعه إلى العليم بخفيات النفوس، الخبير باتجاهات القلوب، وذلك هو الإسلام وحده الذي مهما تعددت مبادئه وتنوعت إرشاداته يرجع إلى كلمتين اثنتين: إيمان، وعمل صالح «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»

«والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»

لقد مرت على الانسانية حقب انتابها فيها مثل ما انتابها في هذه الحقبة من شرور وآثام وطغيان، وما أنقذها من شر تلك الويلات إلا هذا العلاج الالهي، زكاها وطهرها وعلمها الكتاب والحكمة، وحولها من مجاري الشر والشقاء إلى سبيل الخير والفلاح، والانسانية هي الانسانية، والويلات هي الويلات، والعلاج هو العلاج؛ فليكن علاج الآخرين هو علاج الأولين

لهذا وبمناسبة ذكرى ميلاد مسدد هذا العلاج، محمد بن عبد الله رأيت أن أتقدم على صفحات الرسالة بموجز بين واضح عن جملة العقاقير التي تتألف منها ذلك العلاج رجاء أن يتعرفه الناس ويقبلوا عليه فيكون في تناوله الشفاء، والانقاذ، والصحة والعافية.

«وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا»

الإسلام:

ليس الاسلام — كما يظن الذين يجهلون حقيقته — دين نسك وعبادة فقط، تقتصر مهمته على تنظيم علاقة الانسان بربه، وإنما هو — كما ينطق كتابه — دين عملي، عام، خالد. ينظم علاقة الانسان بربه، وعلاقته بمواطنيه وبني جنسه، ويرسم للجميع طريق السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما» «٩، ١٠ الاسراء»

«يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» ٢٤ الانفال

«ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» ٦٦ المائدة

«فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» ١٢٣ — ١٢٧ سورة طه

أساس التنظيم الإسلامي للحياة

شرع الله الإسلام ، وجعل منه نظاما يكفل سعادة الفرد والجماعة فى الدنيا والآخرة ، لم يترك عنصرا من عناصر الخير والفلاح ، عناصر الحياة الطيبة والسعادة الخالدة إلا أمر به ودعا إليه ، وحث عليه ، ولم يترك عنصرا من عناصر الشر والفساد ، عناصر الحياة الذليلة والشقاء المقيم إلا نهى عنه ، وحذر ونفر منه

ذلك أن الإسلام بنى تنظيمه للعالم على الواقع وهو : أن الإنسان جسم وروح ، وأن للجسم حظا ومتعة ، وأن للروح حظا ومتعة ، وأن للانسان شخصية مستقلة عن بنى جنسه ، وشخصية يكون بها لبنة فى المجتمع الوطنى والإنسانى ، وأن له بكل من هاتين الشخصيتين حقوقا وعليه واجبات

ولا تتحقق سعادة الإنسان إلا باستكماله حظ الجسم والروح ، وتنظيم حقوقه وواجباته فى نفسه وفى مجتمعه دون إفراط ولا تفريط

وكل ما جاء به الإسلام من عقائد وعبادات وآداب وتشريعات لا يخرج عن هذه الدائرة ، دائرة رعاية حظ الجسم وحظ الروح للانسان منفردا ومجتمعا

المبادئ العامة للإسلام

وفى ظل هذا المبدأ العام الواقعى ، وفى سبيل الوصول إلى غايته السامية ، وضع الإسلام المبادئ الآتية :

أولا : طلب الإيمان بمصدر الوجود والخير ، والرجوع إليه فى كل شئ ، وإفراده بالعبادة والتقديس ، والدعاء والإستغاثة ، حتى لا يذل مخلوق لمخلوق ، وحتى يشعر الإنسان بعزة نفسه ، ولا يضل باتخاذ الوسائط والشفعاء من دون الله ، وطلب الإيمان بيوم الحساب والجزاء ، والإيمان بمعرفة طريق الحق الذى ارتضاه الله لعباده ، وربط به سعادتهم فى الدنيا والآخرة . ذلك الطريق هو : ملائكة الله الذين يتلقون عنه الشرائع والأحكام ، وأنبياؤه الذين يتلقون عن الملائكة ويبلغون الناس ما أمروا بتبليغه ، والكتب السماوية التى هى رسالة الله لعباده . وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » صدر الآية ١٧٧ سورة البقرة

ثانيا : رسم طرق العبادة وفرض منها جملة أنواع ما بين بدنية ومالية ، جعلها مددا للايمان بالخالق ، وسبيلا لمراقبته ، واعترافا بشكره ، فرض خمس صلوات فى اليوم والليلة يتكرر بها وقوف الإنسان بين يدى خالقه ومولاه يناجيه ، ويستشعر عظمته ، ويخلص بها من سلطان الحياة المادية الظالمة

وفرض صوم شهر فى السنة — وهو شهر رمضان — شكرا على نعمة نزول القرآن ، وتدريبا على خلق الصبر الذى لابد منه فى احتمال الحياة

وفرض الزكاة وهى إخراج جزء معين من ماله فى سبيل الله شكرا على نعمة المال وقياما بحق الجماعة

وفرض الحج إظهارا لشعار الإيمان العام وهو الالتجاء إلى الله مع جماعة المؤمنين متجردين عن المال والأهل والولد والمساكن الطيبة ابتغاء مرضاة الله وتذكرا ليوم المعاد ، وجمعا لكلمة الموحدين وإحياء لذكرى المصلحين الأولين الذين اصطفاهم الله لإنقاذ عباده من هوة الضلال والمآثم

فرض هذه العبادات وبين على لسان رسوله كيفياتها ومقاديرها وأوقاتها ، ووحد بين الناس فى كل ذلك حتى لا تتشعب أهواؤهم ولا تختلف أنظارهم ، وحتى يكون ذلك سبيلا لجمع القلوب وائتلاف الأرواح ، والشعور بوحدة الغاية والمقصد

الثالث : حث على العلم والمعرفة ، وفك عن العقل البشرى أغلال التقليد والجمود ، ودفع به إلى معرفة أسرار الله فى خلقه : أرضه وسمائه ، مائه وهوائه ، وذلك ليقوى الإيمان بالله ، وليسعد الناس باستخدام ما يدركون من أسرار هذا الكون الذى أخضعه الله للانسان وسخره له فى حياته ، ومن هنا علا شأن العلماء الذين خاضوا غمار هذا الكون وانتفع الناس بما أدركوا .

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »

الرابع : أمر الإسلام بتحصيل الأموال وقرر أنها قوام الناس ، وعصب حياتهم ، وجعل السعي في تحصيلها من الطرق المشروعة، وهي الزراعة ، والصناعة ، والتجارة؛ عديلا لعبادة الله

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ١٠ سورة الجمعة

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ١٥ . سورة الملك

وأمر بحفظها ، ونهى عن تبذيرها واغتيالها . وجعل فيها حقا للفقير الذي لا يستطيع العمل والمصالح العامة « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا — ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ٢٦ ـ ٢٩ سورة الاسراء

« وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ١٩٥ سورة البقرة

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ١٨٨ البقرة

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » ٢٧٨ — ٢٨٠ البقرة

وبجانب هذا قرر الإسلام أن الترف منبع شر يقضي على أخضر العالم ويابسه

« وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » ٣٤ ، ٣٥ سورة سبأ

وبذلك حارب في القائمين على الأموال ، والذين لهم فيها حق التصرف — مالكين أو مشرفين حارب فيهم الترف والبذخ والتبذير فيما لا يعود بخير على الأمة ، وجعل للحاكمين الحق في أن يقفوا المسرفين المبذرين بالرصاد حتى يحتفظوا بأموال الله التي استخلفهم فيها ، والتي هي قوام الحياة للفرد والجماعة ، وحتى تسلم صدور المقلين من الحقد الذي تولده وتنميه مظاهر الترف والإسراف التي تحيط بهم وتقع عليها أبصارهم وهم محرومون من حاجتهم الضرورية ، والمعيشة المطمئنة المريحة

وبهذا المبدإ الذي قرره الاسلام إزاء المال تحل المشكلة المالية التي ولدها الجشع فهددت العالم في حياته وأمنه ، فهو يقضي على الطغيان المالي ، ويصون المجتمع من الشيوعية الهدامة ، ويحتفظ بالحقوق والجهود ، ويوفر ثمرة العمل ، ويفتح باب التنافس في عمارة الكون وتقدم الحياة والفضائل الانسانية السامية

أمر الاسلام بحفظ العرض احتفاظا بعنوان الشرف والكرامة ، واقتلاعا لبذور الفوضى الجنسية التي تقضي على نظام الأسر والأنساب ، وتجعل الأفراد لبنات مبعثرة لا يجمعها رباط ولا يظلها قبيل . وقرر أن الاختصاص في الحياة الجنسية كالاختصاص في الملكية الشخصية كلاهما عنصر من عناصر الحياة الآمنة الشريفة ، وبفقدهما أو أحدهما تنفصم العرى وتنقطع الروابط ، ويصير الانسان إلى إباحية مطلقة أو قسوة وحشية ، وجدير به حينئذ أن يرحل من قصور الحضارة إلى غابات الوحوش وفلوات الذئاب

أمر الاسلام بحفظ الصحة وحارب المرض ، فأمر بالوقاية ، وحذر من العدوى ، وحث على التداوي ، وأباح المريض والخائف من المرض إذا توضأ — أن يتيمم — وأن يكتفي بطهارة له. وأباح الفطر في المرض والسفر ، والحيض والنفاس ، والحمل والارضاع والشيخوخة ؛ كل ذلك عناية بالصحة ووقاية من المرض. والاسلام يبني أمره كما قلنا على الواقع ، والواقع أنه لا علم إلا بالصحة ، ولا جهاد إلا بالصحة ، ولا عمل إلا بالصحة ، فالصحة هي رأس مال الانسان وأساس سعادته ، وقد استقر ذلك في نفوس المسلمين حتى اشتهر على ألسنتهم : إن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان

السابع : أمر بحفظ العقل الذى هو ميزان الخير والشر فى هذه الحياة، فحرم كل ما يفسده أويضعفه «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» ٩٠ المائدة

وجاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم : كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام

الثامن : أمر الاسلام حفظا لكيان الدولة وردأ لغائلة المعتدين بتحصيل القوة واتخاذ العدة التى يكافح بها الأعداء

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» ٦٠ سورة الأنفال

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن القوة ليست فى نظر الإسلام إلا طريقاً من طرق الاصلاح وسبيلاً من سبل السلم بإرهاب المفسدين ، ورد المغيرين ، وتقوية جانب الخير بشد أزر المصلحين ، وأنه لا يقرها طريقا للاذلال والتخريب ، وإخراج الناس من ديارهم وسلب أموالهم والتضييق عليهم فى الحياة ، ولا يريدها إكراهاً للناس على اعتناق الدين « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . ٢٥٦ سورة البقرة »

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ٩٩ . سورة يونس

التاسع : قرر الإسلام المساواة بين الناس ، وقضى فى الحقوق والواجبات على الفوارق بين بنى الإنسان ، وأعلمهم فى صراحة لا تعرف المواربة أنهم جميعا من نفس واحدة ، وأنهم ما جعلوا شعوباً وقبائل للتفاضل أو للتناحر والتقاتل ؛ ولكن للتعارف والتعاون

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ١٣ الحجرات

العاشر : وضع الإسلام الأحكام وأصول التشريعات المنظمة لحياة الناس ، وكان سبيله فى ذلك أنه لم يترك الناس يشرعون لأنفسهم فى كل شئ ، ولم يقيدهم بتشريع معين فى كل شئ ، وإنما نص وفوض : نص على أحكام مالا تستقل العقول بإدراك الخير فيه وما لا يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، وفوض فيما وراء ذلك معرفة ما تقضى به المصلحة لأرباب النظر والاجتهاد فى حدود أصوله العامة ، وبذلك حفظ الاسلام للعقل الانسانى كرامته ، وحياته فى الوقت نفسه من الاضطراب والفوضى تبعاً للأهواء والنزعات

الحادى عشر : مكن الإنسان من حظ الجسم وأباح له التمتع بالطيبات، فى مأكله ومشربه، فى ملبسه ومسكنه بحسب وسعه وقدرته دون إسراف أو تبذير ، وأباح له التمتع بحاجة نفسه من الزوجة والمال والولد ، ومكنه من متعة الروح بالعلم عن طريق التصفية والرياضة، وعن طريق الفكر والتدبر فى جلال الله وجماله وما خلق الله من آيات وعجائب

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين — قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق — قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» ٣١ — ٣٣ سورة الأعراف

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . ٨٧ ، ٨٨ المائدة »

الثانى عشر : منح الإسلام الإنسان باعتباره فرداً — شخصية مستقلة وجعله فى الوقت نفسه — لبنة فى بناء المجتمع ، وبالاعتبار الأول أثبت له حق الملكية لماله ودمه، وحق الهيمنة على نفسه وولده ، ومنحه فى هذه الدائرة حق التصرف بما يكون

مصلحة له وسبيلاً مقوماً لحياته دون مساس بحق الغير

وبالاعتبار الثانى أوجب عليه للمجتمع حقا فى نفسه يرشد الضال ، ويعين الضعيف ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويخرج للغزو والجهاد فى سبيل رد العدوان ، ويساهم فى كل ما يستطيع فى مرافق الحياة ووسائل رفاهيتها ، وأوجب عليه حقا فى ماله بالبذل والإنفاق فى سبيل الله بما يفضل عن حاجته وحاجة من يمونهم وبلى عليهم ولاية خاصة ، كما حثه على أن يعمل — لو كان قادراً — على إيجاد النسل القوى الصالح الذى يرفع بقوته وصلاحيته صرح المجتمع على كاهله

وفى مقابلة هذه الواجبات التى فرضها الإسلام على الفرد للمجتمع أثبت له أيضا حقوقا أخرى على المجتمع فكلف المجتمع الممثل فى الحاكم وأولى الأمر بحفظ دمه وماله وعرضه ، وشرع لحماية ذلك العقوبة من قصاص وحد وتعزير . وبذلك تبادل الفرد مع المجتمع — فى الوضع الإسلامى — الحقوق والواجبات ، وجعلت سعادة الحياة منوطة بالتعادل بين الجانبين دون طغيان من أحدهما على الآخر ؛ فلو ضن الفرد بنفسه أو ماله ، أو بلسانه أو بامتناعه عن الزواج والنسل مع قدرته عليه — ساءت حالة الأمة وانقلبت حياتها جحيما واستوجب الفرد عذاب الله وغضبه . وكذا لو ضن المجتمع بقوته وسلطانه عن حماية الفرد وكفالته ساءت الحال وانقلبت الحياة جحيما واستوجب الحاكم وولاة الأمر الممثلين للأمة سخط الله وغضبه

شد الاسلام أزر هذه المبادئ التى لا بد منها فى أصل الحياة ، وحفظها بجملة من الآداب الفردية والاجتماعية تخلع على الانسان فى شخصه ومجتمعه حلة البهاء الانسانى والجمال النفسى ، وتقيه شر التدهور والانحلال

ففى أدب التواضع والمشية والنداء واشتغال الانسان بما لا يعنيه وجريه وراء الظنون الفاسدة والخواطر السيئة يقول الله تعالى « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » ١٨ سورة لقمان

ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » ٣٦ — ٣٨ الاسراء

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » ١٢ الحجرات

وفى أدب الزيارة للبيوت : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » ٢٨ سورة النور

وفى سد أبواب الفتنة الجنسية « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ٣٠ ، ٣١ النور

وفى أدب المجالس « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا » ١١ سورة المجادلة

وفى أدب تلقى الأخبار وإذاعتها : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ٦ سورة الحجرات

وفى أدب اجتماعى خطير « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » ١١ الحجرات

وفى معاملة المسالمين المخالفين فى الدين « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ٨ الممتحنة

الرابع عشر : هذه جملة المبادئ الأصلية التى وضعها الاسلام سبيلا للحياة الطيبة ، وقد صانها الاسلام فوضع العدل والشورى أساسين للحكم فيها وبين مصادر التشريع التى يتجه إليها المشرعون فيما يحتاجون إليه من أحكام « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا » ، (وشاورهم فى الأمر)(وأمرهم شورى بينهم) (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى »

وفى بيان مصادر التشريع يقول (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » ٥٨ ، ٥٩ النساء

ثم أمر الناس بتقوى الله فيها والتزام حدوده منها وحذرهم مخالفتها ودعاهم إلى الاعتصام بحبلها ، والتضامن فيها ، والتواصى بها حاكمين ومحكومين ، رعاة ورعايا

وفى ذلك يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

« والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

أما بعد : فهذا هو الاسلام وهو دين الله الذى ارتضاه لعباده، ينظمون به حياتهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، وقد بعث بأصوله الرسل ، وبينها فى الكتب ثم أكملها بما يناسب رقى الانسانية فى آخر الكتب المنزلة وهو القرآن ، وعلى لسان خاتم الأنبياء والمرسلين وهو محمد عليه الصلاة والسلام . أجملناه فى هذه المجالة ليكون مناراً يسترشد به المسترشدون، وليكون تبصرة وذكرى لأولى الألباب ، وليكون حدا فاصلا بين الحقيقة التى أنزلها الله ودعا الناس إليها ، وربط بها سعادتهم، وبين الانحراف الذى وقع فيه العالم ، وتفكك به المسلمون

والسلام على من اتبع الهدى

محمود شلتوت

ابتهال الى الله يا محمد

للأستاذ محمود حسن اسماعيل



يا هادم ظلم الأيام ومذل جباه الأصنام
ومبدد أكوان ركعت لسياط قوى ظلام
يضربه سراب للباس
فيقول أنا رب الناس
ويظل يتيه بما عزفت لخطاه أكف الأوهام
حتى أقبلت بإلهام
لا سيف ولا حد حسام
ولطفت علاه بما حملت عيناك من الأفق السامى
فاندك إله الأرجاس
بشعاع من نور محمد .

. . .

يا مطفئ نار مجميه في الوقد لاحت أبديه
عجماء لها نغم سكبت بيديه صلاة الوثنيه
نجنا لقداستها كسرى
والناس لها ظلوا أسرى
حتى أشرقت . . فما سمعت إلا برياح أزليه
تحدوها شهب قدسيه
زأرت بسماء عربيه
فانصعق لظاها واحتضرت أم الأرباب المجميه
ورماد الشرك غدا عطراً
يتسابق شوقاً « لمحمد » . .

. . .

يا حامل شرع للأمم سوى القيعان مع القمم
الأرض بمن فيها سلكت ليلا يتراشق بالظلم
فالعدل بها عشيت سبله
والحق بها شقيت حبله
والمجد لركاع صلبت كتفاه بذل فى القدم
والظلم قرير بالصمم
والمهد نموش للذمم
ونفاق الوجه كما اختلجت حولاء بضوء منقسم
والكون ينـاديه خجله
يارب أجرنا « بمحمد » . .

. . .

يا راقئ دمع الباكينا ومشفع ذنب العاصينا
جئناك حيارى قد نفرت أعماق الجرح بوادينا
حدنا عن نور الإيمان
فغـدونا عبر الأزمان
وطن الإسلام به فتكت أطماع القوم الطاغينا
قد مزقناه بأيدينا
وجهنا الغرب مساكينا
فرقنا الأنفس ، واختلفت حتى فى الروع أمانينا
يارب أعدنا لكيان
أبدى فى ظل « محمد » . .

محمود حسن اسماعيل

دين ودولة

للأستاذ محمود تيمور بك



يخوض الناس فى حديث الدين متنازعين يتساءلون :

هل هو عقيدة روحانية وشريعة عمرانية معا ؟

أينظم الدين علاقة المرء بربه ، وينظم كذلك علاقة الناس بعضهم ببعض فيما يضطربون فيه من وسائل العيش وشؤون الاجتماع ؟

والناس قاطبة مؤمنون بأن الدين عقيدة تسمو بالنفوس إلى الله ، ولكنهم مختلفون فى أنه مع ذلك قانون للمجتمع ودستور للدولة

والهاتفون بأن الدين شريعة ودستور يلتمسون برهان ذلك فيما سن الدين من أوضاع تحكم مرافق الناس ومصالحهم جميعا ، ويرون فى هذه الأوضاع قواعد جامعة صالحة لكل زمان ومكان ، خليقة أن تقوم عليها سائر القوانين والأحكام

والقائلون بقصر الدين على معانى التعبد ، يريدون للناس أن يكونوا أحرارا فيما يتخذون من أنظمة للتعايش ، مستهدين فى ذلك حاجة العصر ، وطابع الزمن ؛ مسايرين موكب المجتمع البشرى فى تطوره الفكرى

والرأى عندى أن مثل هذا النزاع لا يقوم فى أمة إلا إذا كانت من أمر نفسها على قلق ... لا هى متدينة موصولة بدينها فتسكن إليه ، وتهتدى فى عامة شأنها به ؛ ولا هى قد تخلت عن الدين جملة ، فتركن إلى أن تتخذ لعلاقاتها الاجتماعية ضوابط من قانون مصنوع

لا خلاف على أن الأمة المثالية هى التى تكون مصدر السلطات ، وهى التى تحكم نفسها بقانون مستمد من خصائصها ملائم لما يشيع فيها من عادة وعرف ، محقق لرغبة مجموعها فيما يعتقدون أنه خير وبر وصلاح . فإذا لم يكن قانون الأمة على هذا النحو من موافقته لنفسيتها ، ومطابقته لمصلحتها ، فهو قانون مفترى عليها ، لا بقاء له فيها

وإذن فالقانون لا منبع له إلا الأمة فيما يكون لها من مستوى فكرى واقتصادى واجتماعى ، وفيما يكون لها من صبغة نفسية وطابع شخصى ، وفى هذا القانون الذى يحكمها تتجمع صفوة ما تتميز به من أخلاق وعادات وتقاليد ، فإذا هو مرآة لها ، تجلو وجهة نظرها فى الحياة ، ومبلغ فهمها لما هو خير وحق وعدل

ومما لا مرية فيه أن الإيمان إذا استبطن النفوس ، لم يلبث أن يوطنها على هداه ، ومتى رسخ الاعتقاد انقادت العقول طوعا له . وليست مظاهر الحياة فى كل أمة إلا ميزانا أمينا لما يعمر جوانبها من إيمان ، ومقياسا دقيقا لما يرسخ فيها من اعتقاد

وما دام الدين إيمانا عميقا وعقيدة روحانية تأخذ الناس بألوان من تقاليد وأوضاع ، وما دامت هذه الأوضاع والتقاليد ذات أثر بالغ فى سلوك الناس أفراداً وجماعات ، فلا منجاة للقانون من التأثر بالدين ، والاصطباغ بصبغته ؛ فإن قانونا يتشكل بروح الأمة لا بد أن يسرى إليه ما يسرى فى جوانب تلك الأمة من خصائص التدين ، فبقدر ما يسكن فى النفوس من هذه الخصائص يظهر الأثر واضحا فى روح القانون

فإذا نقم الناقمون من قوانيننا التى يجرى بها العمل فى المجتمع الحاضر أنها تجانب تعاليم الدين بقدر يسير أو بقدر جسيم ، وإذا طمح الطامحون إلى تضييق دائرة الفروق بين الدولة

والدين ، فلينظروا بادئ بدء :

أفى هذه القوانين تمثيل صحيح لحاجات البيئة التى يندرج فيها مجموع الأمة ؟ وهل هى تطبيق سليم للمبادئ العامة التى يزكيها أهل الرأى ، وتنزل من موافقتهم منزلة الإجماع ؟

فإن استبان لهم أن القوانين منقوصة الحظ من صحة التمثيل ، وسلامة التطبيق ، فليعمدوا إلى تعديلها وإصلاحها بالوسائل المشروعة التى يجرى بها التعديل والإصلاح

وأما إن وجدوها سليمة صحيحة ، من حيث مسايرتها لحاجات الأمة ، وطبائع المجتمع الحاضر ، فليعلموا إذن أن هذه القوانين لا تجانب تعاليم الدين بغيا وعدوانا ، ولكن لأن الأمة هى التى يضعف استشعارها لهذه التعاليم ، فهى تجانبها على عمد أو على غير عمد

فليقولوا فى غير مواربة إننا نحن الذين أخذنا من الدين قشوراً وظواهر ، وإننا نحن الذين آمنا به رسوما وأسماء ، فأما أغلب مبادئ الدين وتعاليمه الوثيقة الصلة بنواميس العيش وحقائق الاجتماع ، فقد ظلت بعيدة عنا ، أو خافية علينا ، فلم نشعر لها فى مجموعنا بذلك الأثر الذى ينفض صبغته على حياتنا العملية ، ولم يكن لنا إلهام منها فيما نتخذ من دستور ، وما نصطنع من قانون

ولعل السر فى ذلك أن أغلب المبادئ والتعاليم التى رسمها الدين ، لينتظم بها المجتمع فى أسواق الحياة ، يستأثر بعلمها نفر من رجال الشرع ، ويتخذونها موضوع درس وتلقين فى حلقات الدرس والتلقين ، فهى محجوزة لهم ، مخصوصة بهم ، يتعاملونها فيما بينهم لأغراض دراسية محضة لا صلة بينها وبين دنيا الواقع ومشهود الناس . فكأن هذا الدين قسمة بين أهليه : فهو للجمهور عقيدة يتعبدون بها وحسب ، وهو لبعض الناس شريعة دراسية يتلقاها تلميذ عن أستاذ فى مقام التعليم

فمن شاء أن يكون للدين سلطان على القانون ، فليجعل للدين سلطانا على الأمة فى مجموعها ، وليبث فى نفسيها العامة مبادئ الشريعة وتعاليمها ، حتى يستشعر الناس أن هذا الدستور الدينى أنظمة حيوية عملية يقوم على دعائمها صرح المجتمع ، وحتى تطمئن العقول والقلوب إلى أن اصطناع هذه الأنظمة لا يصد عن مسايرة الحضارة فى ركبها السيار . ويومئذ لا تكون القوانين إلا ظلا لهذا الإيمان والاطمئنان على نحو طبيعى لا تكلف فيه ولا افتئات ولا استكراه

والدولة فى جوهرها يتمثل كيانها فى قوانينها التى هى نابعة من عرف الأمة وروحها وخصائصها ، والتى هى صورة صادقة لمبلغ ما تنطوى عليه نفسية الأمة من إيمان بالدين ، وفهم لمبادئه ، واستشعار لتعاليمه ، ولكل أمة مقدار كبير أو صغير من ذلك الإيمان والفهم والاستشعار . وإذن لا بد أن تتأثر الدولة بقدر ما تتأثر به تلك القوانين ، فإنه لا دين بلا دولة ، ولا دولة بلا دين

محمود تيمور

عُمَرُ "وكبرياء قريش" !

للأستاذ أنور المعداوي



فيلسوف من فلاسفة الحكم .. ولا نعني أنه كان من أصحاب المذاهب والنظريات، أولئك الذين يضعون للدولة نظاما فلسفيا تعمل به، ومنهجا مدروسا تسير عليه، وفقا لميولهم الفكرية الخاصة في محيط السياسة والإدارة والاقتصاد

لم يكن عمر بن الخطاب واحدا من فلاسفة الحكم بمعنى هذه الفلسفة في العصر الحديث، حين نفهم على أنها طريقة معينة لنظم الإدارة لا تصلح بغيرها الإدارة، وخطة مفصلة لإقامة نوع من الحكومة لا تنجح بغيره الحكومة، على نحو ما يفكر الفلاسفة الإداريون من أشياع الفاشية أو الشيوعية أو الاشتراكية في هذه الأيام .. لم يكن واحدا من هؤلاء بهذا المعنى المفهوم، وإنما كان واحدا من فلاسفة الحكم حين تكون الفلسفة خبرة بدخائل النفوس، ودراية بأحوال الناس، وبصرا بما تتجه إليه منهم شتى العواطف والنزعات، وعلى هذه الأسس جميعا قامت فلسفة عمر الإدارية حين يرجى صلاح الأمور بين الحاكم والمحكوم

هو فيلسوف بهذا المعنى الأخير إذا كانت الفلسفة فكرا صائبا يلمس مواطن الضعف في أخلاق الرعية، ونظرا ثاقبا يلمح مواضع العلل في كيان الدولة، ورأيا نافذا يقرن الصرامة بالعدل وهو يواجه المرض وملء جعبته فنون من العلاج !

ولا نريد هنا أن نعرض لمختلف الجوانب في فلسفة عمر الحكومية فهي متعددة المعالم متنوعة الأهداف، ولكن الذي نريده من هذه الكلمة هو جانب واحد يدل به المثل الفرد على غيره من الأمثال .. هذا الجانب الواحد الذي يصور لنا الطبيعة العمرية في تصريف الأمور، بما عرف عنها من عبقرية القائد وحنكة الحاكم وكياسة المدير . هناك في مواقفه الحازمة من كبرياء قريش، أو من تلك الأرستقراطية القرشية التي لم يهذب من جموحها إنسانية محمد ولا سماحة الصديق !!

لقد كان عمر يعلم من أمر قريش ما قد يعلمه غيره من الناس . وليس في هذا العلم بطبيعة الظواهر النفسية ما يبهر أو يروع حين يقف العقل بعلمه عند هذا الحد ولا يزيد، لأنه قسط مشترك من المعرفة قد يتساوى فيه كل صاحب حظ من الألمعية أو كل صاحب قدر من الذكاء .. ولكن امتياز عمر في هذا المجال يتمثل في تخطي المنظور إلى ما وراء المنظور، وانتقال الوعي من رؤية العين إلى رؤية الفكر، واحتشاد العقل لتفسير الظواهر النفسية في ضوء ما يصحبها من أعمال وما يعقبها من أحداث!

هنا يتركز امتياز عمر ؛ فهو يعرف عن قريش أمورا لا تخفى على أمثاله من البصراء : يعرف عنها تلك الكبرياء الموروثة عن مكانها في الجاهلية، ويعرف عنها هذا الصلف المكتسب من سيادتها في الإسلام، ومن هاتين الزاويتين قدر كل ما يمكن أن تتسم به الأرستقراطية القرشية من أسباب الزهو ومظاهر الخيلاء . لقد كان هذا الحي من أحياء العرب هو صاحب الكلمة الأولى قبل أن يظهر في الأفق محمد . كان له المجد الذي يأتيه من عزة الدنيا وزعامة الدين : فهو القائم على مناسك الحج يستأثر بها من دون العرب جميعا، ويتسلط بها من دون العرب جميعا، على القبائل كافة . ويستمد من هذه السلطة الدينية كل منابع القوة والرفعة والتفوق على غيره من الأحياء .. وهو صاحب التجارة الضخمة والمال الوفير، وما يتبعهما من سعة الشهرة ونفاذ الكلمة ودوافع السيطرة والغلبة والاقتحام . كان له هذا كله قبل أن تسطع أضواء الرسالة المحمدية في سماء الجزيرة العربية، وحين سطعت هذه الأضواء كان لقريش حق آخر لا يزاحمها فيه مزاحم ولا يجادلها فيه إنسان، وهو شرف الانتساب إلى محمد الزعيم وشرف القرابة من محمد الرسول ..

وحسبها من هاتين الناحيتين أن تغلو وتمعن فى الغلو ، وأن تطمع وتسرف فى الطمع ، وأن تطمح وتغرق فى الطموح ؛ ولا عجب إن عادت الأرستقراطية القرشية فيما ورثته من معانى الصلف ومعالم الكبرياء ، ولا عجب أيضا إن مضت فى طريقها جامحة لا يكاد يهذب من جوحها إنسانية محمد ولا سماحة الصديق !

نعم ، لم يهذب من جوحها هذا الذى قلناه . وإننا لنرمز للأرستقراطية القرشية فى عهد النبى وأبى بكر بمثل واحد هو خالد بن الوليد .. لقد كان خالد مثلا صادقا ووجها سافرا لتلك الأرستقراطية المتميزة بالألوان من الغطرسة والاستعلاء ، ولعل ما كان يثير من غلوائه أنه كان واحدا من قريش ، يقبس من أمجادها مجده ثم يضيف إليه مجد القائد الظافر لجيوش المسلمين . وكل هذا قد دفع ابن الوليد إلى شىء من الازدراء للغير وإلى أشياء من الزهو عليه ، كأن يكون هذا المزدرى رجلا كعمار بن ياسر على سبيل المثال .. عمار الذى لقى فى سبيل الدعوة من صنوف الذل وضروب الهوان مالم يلقه إنسان ، عمار الذى عاش مجاهدا ومات شهيدا وعطر صفحات التاريخ بعداد التضحية وسطور الفداء ؛ عمار هذا يخاصمه خالد فى حياة محمد ثم ينسى جهاده فى سبيل الله وفضله فى نصرة الإسلام ، ولا يذكر له غير شىء واحد وهو يتغلظ فى القول ويشتد فى الخصومة ، لا يذكر لعمار غير أن أمه « سمية » كانت أمة من إماء مخزوم ، وأن أباه « ياسرا » كان عتيقا من عتقاء مخزوم ، وهى حى من أحياء قريش كان من فتيانه خالد بن الوليد .. ومعنى هذا كله فى منطق الأرستقراطية القرشية أن العبيد لا يحق لهم أن يرفعوا الرءوس أمام السادة !!

وينطلق عمار إلى الرسول ليحتكم إليه شاكيا ابن الوليد ، ويقبل خالد فى موكب من كبريائه القرشية ليواجه عمارا أمام النبى بمثل ما واجهه به ، فيصمت عمار ويطرق محمد .. وحين تنتهى الأرستقراطية المتعالية من تهجمها على ابن ياسر وابن سمية ، يرفع رأسه الرسول الكريم وينطق الإنسان المظلم ، ينطق بعبارته الخالدة خلود الحق ، الباقية بقاء العدل ، الراسخة رسوخ اليقين : « من عادى عمارا فقد عادانى » !.. قالها محمد ولم يزد ، ولكن العبارة الموجزة كان فيها من الزجر ، وكان فيها من الردع ، وكان فيها من التأنيب والتثريب ، كان فيها من هذا كله ما أشعر خالدا بالخجل وما جعله يطلب الصفح من الرسول ويلتمس العفو من عمار !

ولكن هل رجع خالد عن طبعه وهل عدل عن سيرته بعد وفاة الرسول ؟ إن سماحة الصديق بعد إنسانية محمد ، لم تستطع أن تخفف من حدة تلك الغلواء القرشية أو توقف من اندفاعها فى طريق .. وهاهو التاريخ ينقل إلينا موقف خالد بن الوليد من مالك بن نويرة حين قتله بغير حق ليتزوج من امرأته الحسناء . وها هو ينقل إلينا مرة أخرى كيف ثار عمر من أعماقه على هذا العمل الذى لا يقره العدل ولا يرضاه الضمير ، وكيف خذله أبو بكر حين طلب إليه أن يعزل ابن الوليد حتى لا يكون قدوة سيئة لمن هم تحت إمرته من قواد المسلمين . لقد كان أبو بكر رجلا سمح النفس لين العريكة موطأ الأكناف يمسك بهدى محمد ، وما دام محمد فى رأيه قد وضع خالدا على رأس الجيش ثقة بقدرته واعترافا بمكانه ، فلا يحق لابن أبى قحافة أن يخرج على تلك الثقة الغالية فيعزل قائدا رضى عنه الرسول ..ويسكت ابن الخطاب على مضض ويسرها فى نفسه إلى حين !

كان عمر كما قلت لك يعرف من أمر قريش ماقد يعرفه غيره من الناس ، ولكنه كان كم فيلسوف خبر طبائع النفوس ، كان يدرك أن قريشا كالطفل المدلل لا تنفع معه كلمات الزجر ولا تحول دون رغباته ألفاظ التأنيب ، وإنما يصلح أمره بالحكم الحازم واللقاء الصارم ، و« الدرة » التى لا تفرق حين تعلو الرءوس بين كبير وصغير . كان يخشى الفتنة وينشد العدل ويطمع فى مرضاة الله ، وكانت الفتنة التى يخشاها هى ما يعرفه عن قريش من حب للسيطرة ورغبة فى الاستعلاء ، وطموح لا يقف عندحد فى سبيل فرض الكلمة على غيرها من الناس . وأى فتنة أشدخطرا وأبعد أثرا من أن تلغى الأرستقراطية القرشية شعار الدعوة ودستور الإسلام : وهما لا فضل لعربى على عجمى إلابالتقوى ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم ؟ إن الإسلام لم يعترف بفضل غير فضل الجهاد ، ولا بمنزلة غير منزلة التقوى ، ولا بجاه غير جاه الدين ، ولا بسلطان غير سلطان العدل والمساواة .. فإذا كانت قريش لا تريد أن تعترف إلا بعزتها فى الجاهلية ومكانتها فى الإسلام وقرابتها من الرسول ، فهذه هى الفتنة التى كان يخشاها عمر ويقدر عواقبها فى

تشتيت الشمل وتفريق الكلمة وتصدع البناء . ومن هنا وقف ابن الخطاب في وجهها بكل ما أوتي من حزم الحاكم وحكمة الفيلسوف : الدرة في يمينه تأديب وتهذيب ، والكلمة على لسانه تشريع وقانون !!

بهذه الفلسفة الحاكمة وبعد وفاة أبي بكر ، واجه عمر كبرياء السادة من قريش .. عزل خالداً من القيادة والمعركة دائرة ليضع في مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، لأنه لم ينس لابن الوليد تلك الهفوة التي أقدم عليها يوماً مطمئناً إلى سماحة الصديق ، وحتى لا يكون كما سبق أن قلت قدوة سيئة لمن هم تحت إمرته من قواد المسلمين ، ولعله قد أراد أن يكبح جماحه ليكون عبرة لأمثاله من الجامحين . ولم يكتف بهذا بل أخذ يراقبه ليقضي على البقية الباقية فيه من زهو الكبرياء القرشية ، وليجعل منها آخر الأمر قوة منهوكة لا تكاد تؤمر حتى تطيع . ويقص علينا التاريخ أن عمر دخل المسجد ذات يوم فوقعت عيناه على خالد وقد رشق في قلنسوته عدداً من السهام ، مختالاً كما يختال بريشه المنفوش كل طاووس من الطواويس .. وتمتد يمين عمر بالدرة ليعلو بها رأس هذا الطائر المختال ، وتمتد شماله لتنزع السهام ملقية بها إلى خارج المسجد دون أن يسمع كلمة اعتراض ، ويهتف الجبار العادل في صرخة خالدة : إن الله لا يحب كل مختال فخور ، ولن تزهى قريش وفي ابن الخطاب عرق ينبض !!

ويقص علينا التاريخ مرة أخرى أن عمر كان قد حدد يوماً ليقسم فيه الغنائم على المسلمين ، وحين أقبل اليوم المرتقب تجمع الناس من حوله وازدحموا عليه ، حتى لم يبق مكان لقدم . ونظر عمر إلى رجل يدفع الناس بمنكبيه ويشق طريقه في عنف حتى بلغ موضعه من الطليعة ، وكان هذا الرجل هو سعد بن أبي وقاص ، سعد الذي كان أول من رمى بسهم في سبيل الله ، والذي فداه النبي بأبويه يوم أحد ، والذي رآه مقبلاً ذات يوم فأشار إليه وقال لمن حوله : هذا خالي . سعد هذا رآه عمر يزاحم الناس يوم تقسيم الغنائم فلم يكن منه إلا أن علاه بالدرة وهو يصرخ في وجهه : لم تهب سلطان الله في الأرض فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك !!

ويقص علينا التاريخ مرة ثالثة وما أكثر ما يروى لنا التاريخ من أنباء عمر ، يقص علينا أن عبد الرحمن بن عوف قد أقبل يوماً على الجبار العادل ومعه فتى من بنيه قد لبس قميصاً من حرير ، فينظر إليه عمر غاضباً ويقول له : ما هذا الذي أراه يا ابن عوف ؟ لباس من حرير وابن الخطاب قائم على أمر هذه الأمة ؟ ثم يدخل يده في جيب القميص فيشقه إلى أسفله . ويقول له عبد الرحمن وقد أذهلته المفاجأة : ألم تعلم أن رسول الله (ص) قد أذن لي في لبس الحرير ؟ فيجيب عمر مصدقاً له منكراً لمن عداه : بلى ! لحكمة شكوتها .. أما لبنيك فلا !!

وهكذا كان عمر حيال الأرستقراطية القرشية . يريد أن يسوي بين قريش وبين غيرها من العرب في كل شأن من شؤون الحياة ، فلا فضل ولا تفوق ولا امتياز ، ولا شيء يمكن أن يفرق بين الناس في مظهر من المظاهر ولا في قيمة من القيم ولا في حق من الحقوق ولهذا أدار دفة الحكم كما سبق أن قلت ، بما عرف عنه من عبقرية القائد وحنكة الحاكم وكياسة المدير .. وبقيت حقيقة تقف من هذه المقدمات المادية موقف النتيجة النفسية ، وهي أن تلك الكبرياء المقهورة في نفوس قريش قد تنفست الصعداء بعد موت عمر ، فانطلقت في عهد عثمان كما تنطلق الأسود السجينة قد أفلتت من قبضة السجان . ووقعت الفتنة التي كان يخشاها الحاكم الفيلسوف ، وهي أن يخلي بين قريش وبين ما تطمع فيه من سيطرة على العرب ، وما تطمح إليه من تحكم في رقاب الناس ؛ وقعت الفتنة التي أودت بعثمان فيما أودت به من استقرار الأمور في جيل من بعده أجيال . ويالها من نتيجة طبيعية لتلك التي ترتبت على انقضاء عهد كان فيه ابن الخطاب كما صورناه : الدرة في يمينه تأديب وتهذيب ، والكلمة على لسانه تشريع وقانون

يادرة عمر ، إن لك مكاناً في التاريخ .. ويا عدل عمر ، إن لك مكاناً عند الله !!

أنور المعداوي

دين الفطرة

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي



عدت إلى الشرق الإسلامي عدوى من الغرب في أمر الدين لم تكن لتنتقل إليه لو كان يدري ما الدين الذي بيده ، أو كان يدري فرق ما بين الدين في الغرب وبين الاسلام

لقد حاول الغرب كثيراً أن يوفق بين دينه وبين العلم فلم يستطع، لا لجمود رجال الدين فيه هذه المرة ، ولكن لنصوص في كتابه ناقضت ما أثبته العلم واستعصت على التأويل ، كالنص على عمر للدنيا محدود لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين في حين أن العلم اليقيني يقدر عمرها بالملايين . وكان من شأن ذلك أن حمل بعض كتابه مثل ماتيو أرنولد وبعض قسيسيه على أن ظنوا أن الدين قد خذله الواقع فلم يبق ما يستند إليه إلا الشعر ، أي إلا ما يتمثل في ذلك الدين من معان شعرية وقيم أخلاقية لا غنى للانسانية عنها بحال . وقرأ ذلك وشبهه بعض مقلدة الغرب من المسلمين الذين يحتطبون في حبل الغرب كيفما احتطب، فظنوا أن ما ينطبق على الدين هناك ينطبق على الدين هنا من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث عن الدينين هل هما مشتركان في مخالفة اليقيني من العلم حتى يشتركا أيضاً فيما يترتب على تلك المخالفة من حكم . ومن هنا نجمت هذه الناجمة التي تحاول أن تطفئ نور الله بأفواهها حين تدعو من ناحية إلى اعتبار القصص القرآني فنا يرمز إلى قيم أخلاقية من غير أن يقوم على حقيقة تاريخية ، ومن ناحية أخرى إلى تأويل نصوص الدين وأحكامه وتقييدها وتخصيصها بما لم يقيدها أو يخصصها به الله ولا رسوله ولا جماعة المسلمين من لدن أن نزل القرآن إلى هذا العصر الذي فقد الشرق فيه اتزانه ، وكاد أن يبيع بأبخس الثمن إيمانه

ومن العجيب أن الإسلام الذي يرمونه بداء غيره فينسبون إليه معاداة العلم أحياناً ومنافاة العقل أحياناً ومجافاة الفطرة أحياناً، هو وحده من بين الأديان السماوية الذي احتضن العلم وحكّم إلى العقل وميز الحق بخصائصه . وما عليك إلا أن تردد النظر في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة لترى الدليل تلو الدليل على أن الاسلام هو دين العلم والعقل والحق. وهو وحده من بين الأديان السماوية الذي عرف الفطرة وسماها باسمها ووصفها بأوصافها وشهد لنفسه أنه دين الفطرة ، بل أنه نفس الفطرة التي فطر الله عليها الناس . وآية ذلك قوله تعالى من سورة الروم

(فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد غفل المسلمون عن هذه الآية بأطرافها غفلة يعجب منها كل ذي لب حتى يضرب كفا بكف ! فلا هم أطاعوا أولها ، ولا هم استمدوا التثبيت من آخرها ، ولا هم فقهوا ما بين ذلك منها ليتخذوا منه هادياً ودليلا وحجة تقوم وتدحض كل ما افترى أو يفترى الخصوم :

(فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله) : كلمات كل منها حجة قاطعة وقوة قاصمة تصدع وتدفع كل من يرمي الإسلام بما لا يليق بدين الله

إن فكرة الفطرة وحدها لا يمكن أن تخطر ببال بشر من عند نفسه في العصر الذي نزلت فيه الآية الكريمة ولا في القرون الكثيرة بعده ، لأنها لم تنشأ بعد الإسلام إلا بنشوء العلم الحديث في الغرب . ومن يدري ! لعل الغرب استوحاها مما نقل إليه في القرون الوسطى من كتب الاسلام

ونسبة الفطرة إلى الله الحق جل جلاله تشريف أي تشريف وإكبار أي إكبار للفطرة كلها ولفطرة الانسان على الأخص لعلها المقصودة هنا بالذات . وهي كفكرة الفطرة لا يمكن أن تخطر ببال بشر من عند نفسه ، لا في عصر نزول الآية الكريمة ولا فيما

بعدها من العصور ؛ فإن الانسانية حتى فى عصر العلم الحديث هذا لم تهتد بعد إلى أن فطرة الانسان هى من عند فاطر الكون، وأنها جزء من الفطرة عامة لها حكمها وإحكامها . فكما أن الكون قد فطره فاطره على سنن وقوانين لا تتخالف ولا تتخلف كشف عن بعضها العلم الطبيعى الحديث ، كذلك الانسان فطره فاطر الكون على سنن وقوانين لا تتخلف ولا تتخالف لا مع نفسها ولا مع غيرها من سنن الله فى الخلق . وفى نسبة فطرة الانسان إلى فاطرها سبحانه يتمثل الفرق بين الانسان وبين دين الغرب الذى يقول بأن الانسان مفطور على الاثم . فالاسلام بتلك النسبة الكريمة يرفع الانسانية وفطرتها إلى الأوج ، ويفتح أمامها الباب واسعاً إلى السعادة والترقى الذاتى ، فى حين أن نسبة الفطرة الانسانية إلى الاثم توصد هذا الباب أمام الانسان وتنزل بفطرته إلى الحضيض

ومن عجائب تلك الآية الكريمة ودلائلها الباهرة وصفها الفطرة بأخص أوصافها وهى الاطراد والثبوت وعدم التخلف : (لا تبديل لخلق الله) . ووصف فطرة الانسان خاصة بأخص خصائص فطرة الكون عامة من الاتساق والاطراد والثبوت ، هو برهان على برهان أن القرآن من عند فاطر الفطرة سبحانه ؛ فإن الانسانية بعلومها الطبيعية الحديثة إذا كانت قد اهتدت إلى اطراد الفطرة فى المادة والطاقة ، فإنها لما تهتد إلى الفطرة ولا إلى اطرادها فى الاجتماعيات . فهى فى فلسفاتها ومذاهبها الاجتماعية فى البلبلة والاضطراب الذى ترى ، والذى لا ترى له مثيلا فى الطبيعى من العلوم

وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) فى موضعها من الآية ليس فقط وصفا للفطرة التى فطر الحق سبحانه عليها الانسان وغير الانسان من حيث اطراد السنن وثبوتها ، ولكنه أيضاً أمر وتشريع ألا يبدل الانسان دين الله بتشريع من عنده كما فعل المسلمون ويفعلون منذ اتصالهم بأوروبا فى القرن التاسع عشر حين اتخذوا ويتخذون منها إماما ، ومن قوانينها ونظمها الاجتماعية بديلا من أحكام الله . ثم هو أيضا توكيد ، أى توكيد لما أمر الله به فى صدر الآية الكريمة من إقامة الوجه للدين فى تصميم وعزم ، وانصراف كلى إليه ، وميل عن كل ما سواه ، وإلا تمرض فى روحه واجتماعياته لكل ما يتعرض له ممن يخالف قوانين الفطرة وسننها فى المادة وما إليها.

ومن العجيب أن الإنسان مقبل كل الإقبال على الانصياع لما يعلم من قوانين الفطرة فى المادة والطاقة لا يجترئ على مخالفتها فى معامله ولا فى مصانعه ، فنال بذلك ما نال من القوة المادية الهائلة التى حملته وتحمله على الغرور والاغترار ، ثم هو منصرف انصرافا كبيراً عن الانصياع لقوانين الفطرة فى الروح والاجتماع بانصرافه عن الإسلام دين الفطرة : دين الله ، واجترائه عليه بالشك والتشكيك ، والاهمال والتجريح ، أو بالتأويل والتبديل ، والتحريف والتعديل ، كيفما شاء هواه . فكان عاقبته أن صار قزما فى الروح عملاقا فى المادة ، أو قزما فى الناحيتين الروحية والمادية كلتيهما وكان عاقبة المسلمين بتركهم الدين وانخداعهم عنه ما نرى من الضعف والمهانة حتى اجترأ عليهم من لم يكن يدفع عن نفسه ، وكان عاقبة الغرب حين لم تجد قوته المادية قوة روحية تكبح جماحها أن تناورته الخطوب ودمرته الحروب وفرقته المذاهب والأهواء شيعا لا اتفاق لها ولا أمل فى اتفاق

ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة وأكبرها وأبهرها وصفها الاسلام بأنه نفس الفطرة التى فطر الله عليها الناس . وهذا شىء فوق العقل البشرى أن يتصوره ، فضلا عن أن يسبق إليه فى القديم وفى الحديث . والانسانية إلى الآن لا تعقل حتى إمكان تحقيقه ؛ فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدثون أنفسهم بالوصول يوما ما إلى نظام ينطبق على الفطرة من جميع الوجوه . والمسلمون فى شغل بما ينبذ إليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذى فى أيديهم والنور الذى فوق أبصارهم ، وعن النعمة الكبرى التى من الله عليهم بها فى الاسلام

وليس وصف الاسلام بأنه نفس الفطرة التى فطر الله عليها الناس من باب المبالغة كما قد يظن بعض الناس ، فليس فى الآية الكريمة من أدوات المبالغة ولا من قرائنها شىء . بل هو وصف دقيق للدين الذى أنزله وكمله وأمر الناس بإقامة الوجه له مائلين عما سواه . فهو وصف محيط شامل لتمام انطباق دين الله على الفطرة التى فطر عليها الناس حتى كأنما هو هى ، لا تخالفه فى شىء ولا يند عنه منها شىء وفرق بين المبالغة وبين هذا التعبير الدقيق

عن تمام تطابق الاسلام والفطرة . إن المبالغة فيها دائما تزيد عن الواقع ولو قليلا ، لكن الوصف هنا طبق الواقع من غير زيادة ولا نقصان مادام الواصف هو الله الحق سبحانه الذى فطر الفطرة وأنزل الاسلام لاسعاد الناس

ويمنع أيضا من احتمال المبالغة فى ذلك الوصف الالهى المعجز أن مجرد القول بها يجعل الدين مقصرا تقصيراً ما عن حاجة الانسان بفطرته ، وعندئذ ينفتح باب من جواز تطلب سد تلك الحاجة فى غير ما شرع الله للانسان من دين . وهو باب إن انفتح أوشك لما يحيط به من إبهام أن يؤدى إلى التحلل حتى من أساسيات الدين وأصوله كما يحاول بعض الأفاكين أن يلقى فى روع المسلمين اليوم . لكن الله برحمته وحكمته ، وهو أعلم بما خلق وأعلم بما نزل وشرع ، قد سد هذا الباب من الاحتمال إلى الأبد حين وصف الاسلام لتمام التطابق بينه وبين فطرة الانسان بأنه هو نفس الفطرة . وأرقى ما يمكن أن يطمح إليه الانسان من الرقى الروحى أن يحقق لنفسه فطرتها ، وأن يبلغ فى الترقى أقصى ما تسمح به فطرته . وليس إلى هذا سبيل إلا تمام الاستمساك بدين الفطرة الذى وصفه منزله وفاطرها بأنه هو نفس الفطرة : الاسلام

محمد احمد الغمراوى

نجوى الرسول الأعظم ﷺ

للأستاذ جورج سلستى

أقبلت كالفجر وضاح الأسارير ... يفيض وجهك بالنعماء والنور !
على جبينك فجر الحق منبلج ... وفى يديك مقاليد المقادير !
فرحت ، والليل ليل الكفر معتكر ... تفرى بهديك أسداف الدياجير !
وعطر البيد آلاء ، وعرعها ... يغنى بذوم إلى دهر الدهارير !
ما أنت بالمصطفى يا بيد مجدبة ... كلا ! ولا أنت يا صحراء بالبور !
أبيت إلا سمو الحق حين أبى ... سواك إلا سمو البطل والزور !
أطلعت من تاهت الدنيا بطلعته ... ونافست فيه حتى موئل الحور !
أطلعت أكرم خلق الله كلهم ... وخاتم الرسل الصيد المغاوير !
بوركت أرضاً تبث الطهر تربتها ... كالطيب بثته أفواه القوارير ،
ألدين ما زال يزكو فى مرابعها ... والنبل ما انفك فيها جد موفور ،
والفضل والحلم والأخلاق ما فتئت ... تحظى لديها بإجلال وتوقير !
فدتك افتخاراً على الأكوان قاطبة ... بما حبوت الورى يا بيد من نور !
فليس كالدين نور يستضاء به ... فى عالم بظلام الجهل مغمور ،
يغزو بنوه هوى ، إلا أقلهمو ، ... غزو البغايا بأكناف المواخير ،
ضلوا ، فما إن أرى فيهم أخا بصر ... إلا نكبت بآلاف من العور !

. . .

يا سيدى ، يا رسول الله ، معذرة ... إذا كبا فيك تبيانى وتعبيرى
ما ذا أوفيك من حق وتكرمة ... وأنت تعلو مدى ظنى وتقديرى ؟!
وأنت رب الأداء الفذ فى لغة ... تشأو اللغى حسن تنميق وتصوير

. . .

على لسانك ، ماجن البيان به ، ... وأفصد الشعر يرنو شبه مسحور !
آى من الله ، ما ينفك معجزها ... يعيى على الدهر أعلام التحارير !
تلوتها فسرت كالنور مؤتلقا ... يطوى الدنى بين مأهول ومهجور !
وألفت الناس من بدو ومن حضر ... كما تلف الثرى هوج الأعاصير
فلان من كان فظا ، واستكان لها ... مستكبر ، وعنا طاغوت شرير !
وكنت عفا رقيق القلب متسما ... بكل زاه من الأخلاق منضور
تستل بالحلم حقد الحاقدين وتحتل القلوب بلطف عنك مأثور ،
الله أكبر ! كم فى اللين من عظة ... لملق (٢) شر غليظ القلب مغرور
فاللين مقدرة ، والحلم مأثرة ، ... والعطف مكرمة تنبيك عن خير (٣)
وأنت من أنت فى دنيا الخصال ألا ... بوركت من مرسل بالطهر مفطور
تنهى وتأمر بالحسنى ، ورائدك الدين الحنيف بما ألهمت من سور (٤) !

. . .

يا ممرع البيد بالإيمان ، مرحمة ... فقد تناءى الهدى من صفوة الدور
وجامع الشمل بالتقوى لقد صفرت ... منها النفوس فتاهت كاليحامير (٥)
أشكو إليك دياراً كنت مرشدها ، ... ومرشدوها استكانوا اليوم للنير !

١) تشأو : تسبق وتفوق ، واللغى جمع لغة ، وتجمع على لغات ولغون :
٢) يقال هو علق شر لمن يحب الشر ويتبعه
٣) الخير بالكسر : الأصل والشرف
٤) سور : جمع سورة ، وتجمع على سور وسورات كذلك
٥) اليحامير : جمع يحمور وهو حمار الوحش ، وصفرت : خلت

وأصبحوا تبعاً *) للأجنبي، فما زادوا وحقك إلا سوء تدبير !
وكان بالأمس حب الله يجمعهم، فبات يجمعهم حب الدنانير !
وذي فلسطين أولى القبلتين، لقد يمت على يدهم بيع الجآذير !
والشعب — واحربا للشعب ساعة تقودها فى الفيافى كف مأجور
قد باع تقواه بالدنيا، وقال لها : سيرى كاشئت عمياء الهوى سيرى

* * *

يا سيدى، يا نجى الله، روعنا صرف الزمان بشر منه مسعور
وامتد بالعرب ليل النائبات، أما للفجر بعد الدياجى من تباشير ؟ !
وطال منا السرى فى مهمه درست فيه الصوى قاتم الأرجاء مسجور
فاشفع فإنك أدنى المرسلين إلى البارى، فنسلم من ذل وتعيير
ويرجع العز مفقود اللواء لنا وحقنا مستحير غير منزور ٧)
وأكلا عليك صلاة الله، أمتنا حيال ربك حتى نفخة الصور

بيروت — جورج سلستى

٥) التبع : جمع تابع كخادم وخدم
٦) الصوى : جمع صوة وهى الحجر يكون هادياً للسافر يغنيه عن الدليل ومسجور : فارغ، ساكن — والوقد .
٨) المستحير : المكتمل، والهائم الذى لا ينقطع

الإسلام نظام عالمى

للأستاذ عباس خضر



شاع بيننا — منذ غزتنا أوربا بجيوشها وحضارتها — أن الحياة الدينية شىء آخر غير الحياة العملية، وحرص الغزاة على أن يقروا هذا الوهم فى نفوسنا، وأردنا نحن ذلك وسعينا إليه وعملنا له، عند ما رأينا الحياة الأوربية نفسها قائمة على ذلك الوضع، إذا بدا لنا أن ننهض كما نهضت أوربا، وقد قامت النهضة الأوربية بمعزل عن الحياة الدينية بعد أن اجتازت دور الصراع بينها وبين الكنيسة، ذلك الصراع الذى انتهى إلى جعل الدين فى وضع صلاحى يتفق مع مبادئ المسيحية التى تنحصر فى شعائر العبادة والتهذيب الروحى وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ولم نهتم بأن نلائم بين نهضتنا الحديثة وبين شريعتنا الإسلامية، وساعد على ذلك جمود علماء الإسلام ونفورهم أو توجسهم الشر من دخول الحضارة الأوربية إلى حياتنا، وكان التيار — ولا يزال — جارفاً، ولم تكن مقاومته مستطاعة، ولم تكن من الخير لتقدمنا، وكان الخير كله أن نتقبله ونحيله إلى ما يوافقنا، وكان هذا يقتضى نشاطاً عقلياً متجدداً، وكان أيضاً يقتضى جواً من الحرية خالصاً من أغراض الاستعمار

ولندع ما كان وما كان يمكن أن يكون، لنعود إلى ما جرنا إليه، وهو تقليد الأوربيين فى التفرقة بين الدين والمجتمع . الحقيقة التى يعرفها كل متبصر فى الإسلام أن هـذا الدين نظام كامل للحياة من نواحيها المختلفة، وهو ينظر إليها على أنها « مركب » — كما يعبر الكيميائيون — فليس هناك ناحية روحية منفصلة عن ناحية مادية، وليست هناك سلطة زمنية لا تعرف الدين إلا على سبيل التبرك به، وليس للدين رجال معينون دون سائر المسلمين، فكل مسلم رجل دين، وقد جرى المجتمع الاسلامى — قبل تقليد الأوربيين — على تسمية الدارسين للشريعة الاسلامية بأسماء مختلفة ليس من بينها « رجال الدين » كانوا : أئمة، علماء، فقهاء، الخ وكان لفظ « الاسلام » لا « الدين » هو الذى يطلق غالباً على هـذه الشريعة الكاملة التى تشمل نواحى الحياة جميعاً، كما تطلق الآن كلمـة « الديمقراطية » أو « الاشتراكية » أو « الشيوعية » لتدل على مبادئها ووسائلها فى تنظيم الحياة

كنا إذن « إسلاميين » ثم تحولنا عن « الاسلامية » فى أكثر نظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأرضينا ضميرنا الدينى أو خدعناه بأنه يكفى لاسلامنا أن نؤدى بعض الشعائر ونخضع للكثير من الأباطيل والخرافات التى تلتبس بشعائر الدين، وضربنا سوراً حول المشتغلين بالدراسات الاسلامية وعرفناهم بزى خاص وسيماء معينة وسميناهم روحانيين. ثم سمينا أنفسنا « ديمقراطيين » وأخيراً حلا لنا لفظ « الاشتراكية » فاتخذناه أو ادعيناه كما

ادعينا الديمقراطية من قبل

ولنفرض أننا الآن أردنا أن نعود إلى الإسلام بمعناه الحقيقى الكامل، مع استمرار سيرنا فى ركب الحضارة العالمى، فهل يمكن ذلك؟ وماذا ينبغى أن نفعل؟

أعتقد أولا أنه لا يقف فى سبيل ذلك إلا فهمنا المخطئ لحقيقة الإسلام، وأول شىء هو أن نصلح هذا الخطأ فى عقولنا، ثم نعمل بمقتضى هذا الاصلاح

والعجيب أن كثيراً منا يدافعون عن الإسلام بما لا يجعله صالحاً لمسايرة التقدم الانسانى، فيثلبون النظم الغربية لأنها مادية وأما نحن فقد صفت قلوبنا من المادية لأننا روحانيون..! فهل نحن كذلك، أو هل ينبغى لنا أن نكون كذلك؟ لقد أشرت فيما تقدم إلى أن الاسلام ينظر إلى الحياة كوحدة كاملة، حياة تسودها الضرورات المادية ويحكمها الضمير أو الوازع الذى ينظم التكافل الاجتماعى ويربطه برباط مكين

إن الإسلام لم يهمل الجانب العملى فى الحياة، بل حث عليه ودعا إليه؛ قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع. ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله» وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»

بل إن الإسلام قدم الجانب العملى فى الحياة على الجانب التعبدى، ورفع الأول على الثانى فى بعض المواطن. روى أنس: كنا مع النبى فى سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلا فى يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء، فمنا من يتقى الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه: ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله

وذكر للنبى صلى الله عليه وسلم رجل كثير العبادة فقال: من يقوم به؟ قالوا: أخوه. قال: أخوه أعبد منه

وشهد شاهد عند عمر بن الخطاب، فقال: ائتنى بمن يعرفك، فأتاه برجل، فأثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: أظنك رأيته قائماً فى المسجد يهمهم بالقرآن، يخفض رأسه تارة ويرفعه أخرى؟ قال: نعم. فقال: اذهب فلست تعرفه. وقال للرجل: اذهب فائتنى بمن يعرفك

هذا هو الإسلام فى حقيقته، يحض على العمل، ويقدر القيم بالنتائج العملية، ويعرف أقدار الناس بأعمالهم وسلوكهم فى المجتمع لا بمظاهر النسك والعبادة. وهو يقيس هذه الأقدار أيضاً بكفايات أصحابها وما يحسنون من أعمال. كتب أبو بكر إلى أبى عبيدة ما يلى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله بن أبى قحافة إلى أبى عبيدة بن الجراح. سلام الله عليك، أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام، فلا تخالفه واسمع له وأطع، فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل دينا، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد»

وهكذا فرق أبو بكر بين الورع والتقوى وبين الكفاية الحربية، وهو فى ذلك يصدر عن روح الإسلام العملية، فهو مع إكباره لأبى عبيدة وتقديره لديانته وتقواه، يسند العمل لمن يراه أهلا له وأقدر على القيام به، وهذا يدل على أن رجال الحكومة فى الإسلام لا يصطبغون بالصبغة الدينية المقدسة، فإن الإسلام يقضى بأن يتولى الأمر من يحسنه لا من هو أعلم وأتقى، ومن هنا تبطل دعوى من يصف الحكومات الاسلامية بأنها دينية لا تصلح للقيام بالأمور، لأنها تتسلح بالقداسة الدينية وتمتنع بها على النقد

وذلك لأن الحكومة التى تسير على نهج الاسلام لا تتصف بالصفة الدينية على النحو الذى يصفونه، وإنما هى حكومة تستمد سلطانها من الأمة لا من حق إلهى، وتعمل برقابة من الأمة، وكلنا يعلم ما قاله عمر بن الخطاب، وهو واقف على المنبر: من رأى فى اعوجاجا فليقومه، ورد أحد المسلمين عليه بقوله: والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا

أما التكافل الاجتماعى بين الناس فقد بلغ فيه الاسلام النهاية حتى إنه جعل الأمة الاسلامية كلها جسماً واحداً، قال النبى صلى

غزوة بدر، بين القرآن والشعر

للأستاذ احمد احمد بدوي

— ١ —

بين القرآن

لغزوة بدر أثر كبير فى حياة الدولة الإسلامية الناشئة ففيها جمع المكيون أمرهم، وحشدوا قوتهم، وأقبلوا بجموعهم، يريدون القضاء على هذه الجماعة التى عابت دينهم، وسفهت أحلامهم، ووجدوا أن الفرصة التى طالما تمنوها قد واتتهم بمهاجمة محمد وصحبه، فربما أمكنهم فى هذه المعركة قتل الرسول، فيمضى دينه معه، ويعودون إلى ما كانوا عليه من قبل، لا ينغص عليهم حياتهم دعوة إلى نبذ ما ألفوه، وطرح ما ورثوه عن آبائهم من عقائد وعادات



ولكن الدائرة دارت عليهم، على غير ما كانوا يؤملون، وانتصر المسلمون انتصاراً مؤزراً، قتلوا فيه جماً من رجالات قريش، وأسروا طائفة أخرى، وعاد الرسول وصحبه فرحين بانتصارهم، مبتهجين بما أفاء الله عليهم، ورجع المكيون يحرقون الأرم على ما نزل بهم من هزيمة نكراء

وقد نزل من القرآن الكريم فى هذه الغزوة المباركة سورة كاملة، هى سورة الأنفال، تنوع فيها القول بين حديث عن المؤمنين، وحديث عن المشركين، وسن أحكام جديدة يقتضيها هذا العهد الجديد من عهود الجهاد

تحدثت السورة عن هذه الغزوة، فتغلغلت إلى أعماق نفسية المؤمنين، فحدثتنا عن كراهة

الله عليه وسلم «المؤمن من أهل الايمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الايمان كما يألم الجسد لما فى الرأس» والأحاديث الواردة فى هذا المعنى كثيرة مستفيضة. وقد محت الرابطة الاسلامية الفوارق بين الناس، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى فلا جنسية ولا لون ولا إقليمية ولا شىء مما إلى ذلك يفرق بين الناس، وقف سلمان الفارسى يقسم الغنائم بين المسلمين فى إحدى الوقائع بين المسلمين والفرس، وفى الغنائم جواهر فارس وتيجان كسرى، فنظر إليه أحد زعماء الفرس مغيظاً وقال: يا سلمان إنها أمجاد قومك تسلمها لهؤلاء العرب! فقال سلمان: لست من أبناء الفرس، وإنما أنا ابن الاسلام

وقد كفلت المبادئ الاسلامية السعادة لجميع أفراد المجتمع، وإن كانت هذه المبادئ تحتاج فى هذا العصر إلى اجتهاد وتنظيم لتوافق روح العصر وتساير الركب؛ وهى حافلة بالذخائر التى يجب أن نكد فى استخراجها ونحسن تطبيقها. هذا هو الضمان الاجتماعى التى تقوم به الآن وزارة الشؤون الاجتماعية، ليس جديداً على الاسلام، فقد كان يعمل به فى العصور الاسلامية المتقدمة. ومما يتصل بذلك ما حكى عن عمر أنه مر بشيخ كبير يسأل الناس فسأله عن حاله، فلما عرف ضعفه وحاجته، قال له: لقد ظلمناك، أخذنا منك الجزية فى شبابك ولم ننصفك فى كهولتك. وأمر له بدينارين كل شهر من بيت المال

وأحب أن أنبه إلى نقطة مهمة فى هذا الموضوع، وهى أن الاسلام لا يقصد بتشريعه المسلمين وحدهم، وإنما هو يعتبر المواطنين من أهل الأديان الكتابية الأخرى كالمسلمين، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فهم أفراد من الأمة يظلهم النظام الاسلامى كما يظل المسلمين، وهم أحرار فى عباداتهم، ولكنهم يشاركون المسلمين فى الحقوق والواجبات، فكل نظام إسلامى يشمل من يعايش المسلمين فى بلادهم من أهل الكتاب، فهو يعتبرهم «إسلاميين» فالاسلام يجمعهم والمسلمين، وإن كان لكل عبادته، وهذه نقطة أخرى تدحض من يصف الدولة الاسلامية بأنها دينية على معنى أنها تقوم على صالح من ينتمى إلى الدين الاسلامى فقط

الإسلام ذخيرتنا، وفيه كل ما نحتاج إليه، لتقدمنا وإصلاح أحوالنا، وهو نظام عالى يكفل للناس الحرية والاخاء والمساواة، ويجب أن نحرص عليه وندعو إليه، لا أن نتركه ونستجيب لدعوات النظم الأخرى.

عباس خضر

بعضهم للخروج إلى القتال كراهة مليئة بالخوف والجزع، وقد دفعهم ذلك إلى جدال الرسول جدالا عنيفا، برغم ما يسوقه الرسول من حجج، يؤيد بها ما يريده من الخروج إلى حرب القرشيين، ويصور القرآن فى صراحة جزع هؤلاء، إذ يقول: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون» ولعل قلة المسلمين يومئذ هى التى دفعت هذا الفريق إلى الجدال، وإلى الرغبة فى أن يستولوا على أموال المكيين، ويعودوا المدينة بلا قتال. وهنا يذكر القرآن أن الله لم يخرجهم من ديارهم رغبة فى مغنم يحصلون عليه، ولكن يريد أن يثبت بهم دعائم هذا الدين الجديد، وينصر الحق «ويقطع دابر الكافرين»

وتصور السورة المؤمنين، وقد وصلوا إلى ميدان المعركة، شاعرين بضعفهم، لاجئين إلى الله أن يمدهم بقوة من عنده، فيمضى الرسول مقويا من روحهم المعنوية، ويعدهم بأن الله سيمدهم بالملائكة ينصرونهم، حتى تطمئن قلوبهم، ويملأ التفاؤل أنفسهم، وكان لذلك أثره، فثبتوا فى المعركة ثباتا أذهل أعداءهم، وملأ قلبهم بالوهن والرعب، حتى تمكن المسلمون من ضرب أعناقهم وبتر أعضائهم، «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم، فثبتوا الذين آمنوا، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بنان»

ويرسم القتال ميدان القتال، وقد اتخذ فيه المسلمون أماكنهم بالعدوة الدنيا من وادى بدر، واتخذ الأعداء أماكنهم بالعدوة القصوى منه، وكأنما يريد القرآن ألا ينسوا هذا الموقف، وأن يذكروا ما كان يخالطهم فيه من مشاعر وإحساسات، ويسجل شعور الطائفتين عندما تراءى الجمعان، فقد خيل للمسلمين أن أعداءهم قلة، فأقبلوا مستميتين فى القتال حتى هزموهم، وخيل المشركين أن أصحاب محمد قلة، فخاضوا غمار المعركة مستهينين، وقد ألقى فى نفس الطائفتين هذا الشعور، ليتم ما أراده الله من انتهاء المعركة بما انتهت به، انتهاء أوحى إلى نفوس المسلمين الشعور بقوتهم ماداموا ينصرون الحق، ويذودون عن الدين الصحيح، حتى لكأن الله يدافع عنهم، ويذود دونهم، «إذ أنتم بالعدوة الدنيا، وهم بالعدوة القصوى، والركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حى عن بينة، وإن الله لسميع عليم، إذ يريكهم الله فى منامك قليلا، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم، ولتنازعتم فى الأمر، ولكن الله سلم، إنه عليم بذات الصدور، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا، ويقللكم فى أعينهم، ليقضى الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور». وهو عندما يذكرهم بالله وقوته، حين يقول: «فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى» — يملأ قلوبهم ثقة بالله، واطمئنانا إلى نصره لهم، فتقوى روحهم المعنوية، ويقدمون على القتال بلا خوف ولا رهبة

وتحدثت السورة عن المؤمنين، وأخذت تحثهم على طاعة الرسول، بعد أن تبينوا عن رأيه، والنجاح فيما دعاهم إليه، وهنا ينفر من العصيان، مخرجا العاصين من عداد بنى الإنسان، مذكرا إياهم بهذه النعمة الشاملة التى أسبغها عليهم، وهى نعمة أمنهم بعد الخوف، ونصرهم بعد الضعف، فجدير بهم أن يستجيبوا لله وللرسول وألا يخونوهما، وألا يدعوا أموالهم وأولادهم تحول بينهم وبين هذه الطاعة، «يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم... واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم، وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات، لعلكم تشكرون، يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول، وتخونوا أماناتكم، وأنتم تعلمون، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة، وأن الله عنده أجر عظيم». وإذا كانت السورة قد عنيت بصفة الطاعة هنا، تحث المؤمنين عليها، فلأن صفة الطاعة أهم صفات الجندى، وأول خلة تطلب فيه، وبدونها لا يمكن كسب معركة، ولا الانتصار فى قتال، والسورة تمهد للجندية، فلا غرو أن دعتهم إلى الاستمساك بأهم صفاتها

كما تحدثت حديثا طويلا عن المشركين، وصفت فيه موقفهم

من الرسول ، وموقفهم من القرآن ، وموقفهم من الدين الجديد وتعاليمه :

أما موقفهم من رسول الله ، فقد دبروا له المكايد ، يريدون أن يحبسوه ، أو يقتلوه أو يخرجوه ، وكان موقفهم من هذا الدين الجديد موقف السفهاء الذين يدفعهم سوء تفكيرهم إلى أن يطلبوا آية تؤذيهم . وكان موقفهم من الصلاة سخرية واستهزاء ، ويصف القرآن بذلهم الأموال لهدم هذا الدين الجديد ، ويسخر من ضياعها سدى ، قال سبحانه . « وإذ يمكر بك الذين كفروا ، ليثبتوك (١) ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله والله خير الماكرين ، وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، ... وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء (٢) وتصدية (٣) ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ، ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون »

والقرآن في هذه السورة يصور نفسيتهم عندما جاءوا إلى المعركة ، فقد كان الغرور يملأ أفئدتهم ، وكانوا يرغبون رغبة ملحة في أن يطير ذكر خروجهم في العرب ، وأن يخنقوا هذا الدين الجديد ، وقد أصغوا إلى ما غرهم به الشيطان وما وعدهم من النصر ولكنه لم يلبث أن تركهم وحدهم في ميدان المعركة لمصيرهم المشئوم . فقد طار غرورهم تحت شدة وطأة الضربات القوية التي كالها المسلمون لهم ، والقرآن يصور ذلك في أسلوب أخاذ ، فيقول « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال : إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب »

ومع تهديد القرآن للمشركين ، وتوعده لهم قائلا : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » — يفتح أمامهم باب الأمل ، ويمهد أمامهم السبيل للعودة إلى الحق ، فوعدهم بأن يغفر لهم الآثام الماضية إن هم عادوا إلى الحق وتركوا اللجاج في الطغيان ، « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » وذكرهم القرآن بآل فرعون ومصيرهم عندما « كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوي شديد العقاب » ؛ وصور لهم المصير المؤلم الذي ينتظرهم ، إذا هم أصروا على عنادهم ، وعادوا في كفرهم ، فإن الملائكة يستقبلونهم شر استقبال ، ويدفعونهم إلى عذاب أليم ، « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ؛ وكل ذلك يدفعهم إلى التفكير العميق ، ويثير فيهم غريزة المحافظة على الذات كي لا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، وكي يعدوا منذ اليوم عدتهم للنجاة من هذا المصير .

ولما كانت معركة بدر أولى المعارك الكبرى ، فقد ضمت سورتها تعاليم يسير المسلمون عليها في حروبهم المقبلة

وأول هذه التعاليم الثبات المستميت في الجهاد ، وهو يتوعد شديد الإيعاد من يفر من المعركة ، لما للفرار من الأثر في تحطيم وحدة الجيش والذهاب بماله من قوة معنوية ، فقال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير »

ومن تلك التعاليم ألا يسمحوا للنزاع بأن يدب بينهم ، وأن تكون الطاعة لله وللرسول شعارهم ، « يأيها الذين آمنوا ، إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين »

ومنها أن تكون العقيدة هي التي تدفعهم إلى الجهاد ، لا محبة الاعتداء ، ولا الغرور والرياء ، وقد سبق أن بينا كيف نعى على المشركين غرورهم وبطرهم

(١) أثبته حبسه (٢) صفير (٣) تصفيق

من شئون المساكن وتخطيط البلدان

فى النظم الإسلامية

للأستاذ لبيب السعيد



لما انعقدت بالقاهرة أخيراً حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ناقشت مشكلة المساكن وتخطيط القرى فى الريف ، وفى رأينا أنه كان يجمل بالمؤتمرين — وهم مندوبو دول عربية إسلامية — أن يلتفتوا إلى آراء النظم الاسلامية فى هذا الشأن ، ولكنهم لم يفعلوا . والظن أنهم فى غمرة التقدير المسرف لنظم الغرب وأفكاره وتشريعاته شغلوا عن الافادة من النظر فى تضاعيف التاريخ الاسلامى وما يحوى من ثروات اجتماعية فكرية وتشريعية ، وهى ثروات يمكن الانتفاع منها فى الطب للمشكلة والملاءمة عند الاقتضاء بين بعضها وبين الزمن . وربما كان من دواعى هذا الاغفال أن نظمنا الاسلامية لم يستخرج بعد الكثير من غرائب نصوصها ، ولم تدرس بعد على نحو علمى عميق يجلوها نصوصاً وروحاً ومعقولا

• • •

وفى موضوع المساكن ، تسبق النظم الاسلامية إلى مبدأ بالغ الأهمية هو إلزام الدولة بتدبير مساكن للفقراء ، ذلك أن الشريعة تقتضى أغنياء كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، وأن يجبرهم السلطان

وللعقيدة أثرها فى الروح المعنوية ، حتى لقد جعل القرآن الرجل المؤمن ذا العقيدة يساوى عشرة من المسلمين فى ميدان القتال ، ثم خفف الله عنهم وجعله يضارع رجلين

ومنها الحزم فى معاملة العدو ، وعدم الظهور بمظهر الضعف ، لئلا يظن العدو فيهم وهنا ، فهؤلاء الذين لا يحترمون عهودهم إذا عقدوا عهدا — جدير ، إذا حوربوا ، أن يكونوا عظة لغيرهم ، وأولئك الذين يضمرون الخيانة حريون بأن ينبذ إليهم عهدهم ؛ ويوصى القرآن بإعداد القوة والعناية بأمرها ، لما طبعت عليه النفوس البشرية من خوف القوة والحذر منها ، فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم ، لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون »

وتحدثت السورة كذلك عن تقسيم الغنائم ومعاملة الأسرى ، وختمت بالثناء على هؤلاء الذين جاهدوا فى تلك الغزوة ، وأبلوا فيها أحسن البلاء من المهاجرين والأنصار ، ووعدتهم بأكرم الوعود ، قال سبحانه : « والذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم »

أرأيت كيف تنوعت أغراض السورة ، بين وصف لنفسية الفريقين المتقاتلين ، وعمل على تقوية الروح المعنوية فى نفوس المؤمنين ، وتحطيم هذه القوة عند المشركين ، وكيف يقف الدين الجديد إزاء هؤلاء المشركين موقف الحزم المشوب بالرحمة وفتح باب الأمل ، وكيف كانت الغزوة سببا فى سن تعاليم جديدة توطد للدين الناشئ أقدامه ، وتهدم ما بناه المشركون من أوهام وخرافات وكيف أثنى على من أقدموا على الجهاد ثناء يوحد بين قوى المهاجرين والأنصار ، ويؤلف بين قلوبهم

للكلام بقية

أحمد أحمد بدوى

على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم . والقيام بالفقراء لا يكون بتدبير القوت وكسوة الشتاء والصيف فحسب ، ولكن أيضاً بتجهيز مساكن لهم يصفها ابن حزم بأنها « تكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » [1]

وتوفير المساكن أمر عمراني تستهدفه النظم الإسلامية ، فليس لمالك دار أن يهدمها إذا كان في ذلك — كما يعبر الفقهاء — « ضرر لأهل السكة بخراب المحلة » [2]

والمسلمون في سياستهم السكنية يعنون بقوانين الصحة الوقائية ، فهم مثلا لا يغفلون عن وجوب نقاء ماء الشرب ، ويعرفون الماء خطره في توفير النظافة ، ولذلك فهم حين تواتيهم الفرصة بفضل الظروف الطبيعية يزودون البيوت كبيرها وصغيرها بالمياه النقية . يتحدث المرحوم الأستاذ أمير علي عن مياه الشرب في دمشق أيام الأمويين . فيقول : « ومع أن نهر (بردى) كان يجهز المدينة ولا شك بالمياه الكافية إلا أن الأمويين أبدوا مهارة منقطعة النظير في تجهيز حتى أحقر دور المدينة بأحواض خاصة تنبثق منها المياه الصافية ، كما حفروا سبعة جداول رئيسية تنساب في أنحاء المدينة ، علاوة على المجاري العديدة الأخرى التي كانت تربط كل منزل بالمجرى الرئيسي . » [3] ولقد زار ناصر خسرو المسجد الأقصى فرأى هناك « ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء إلى أحواض حجرية تحتها ، وقد ثقبت هذه الأحواض ليخرج منها الماء ويصب في الصهاريج بواسطة قنوات بينها غير ملوث أو عفن » [4]

ويبدو أن العناية بالمرافق العامة كانت مبذولة في مختلف البلاد الاسلامية صغيرها وكبيرها ، فمن وصف ناصر خسرو لمسجد (ميافارقين) في فارس أن « لميضأته أربعين مرحاضاً عر

١ — المحلى ج ٦ ص ١٥٦
٢ — الفتاوي الأنقروية ج ١ ص ٣٦٦
٣ — مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي: ترجمة رياض رأفت ص ١٦٨
٤ — سفرنامه ترجمة يحيى الخشاب ص ٢٦

أمامها قناتان كبيرتان : الأولى ظاهرة ليستعمل ماؤها ، والثانية تحت الأرض لحمل الثفل والصرف » [1] . ومن وصفه لمسجد (آمد) « أن به ميضأة عظيمة جميلة الصنع بحيث لا يوجد أحسن منها » [2] . وكذلك من وصفه لسوق طرابلس الشام أن فيها مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير ، ويأخذ منه الناس حاجتهم » [3] . ويذكر ابن دقاق عن وزير لآل طولون أنه « عمل المجاري في سنة ٣٠٤ أو ٣٠٣ هـ » [4] . وكشفت حفريات الفسطاط عن كثرة المدات الصحية وانتشارها فيها ؛ يقول صاحبا هذه الحفريات المرحوم علي بك بهجت والمسيو ألبير جبرييل في هذا الشأن : « يستدل من كثرة المدات الصحية وانتشارها على زيادة العناية بأمور الصحة العمومية لأنا لم نر داراً خلت من وجود مجارير للمراحيض متسلطة على بيارة تنصرف إليها أيضاً مياه الدار » [5] . وقد وصف هذان الأثريان تفصيلا نظم بناء المراحيض والمجاري بالفسطاط ونظم توزيع الماء في هذا البلد ، سواء بالآبار أو بالقنوات والأنابيب أو بالفساقي وأحواض غسل الأيدي فنستدل من هذا الوصف على تقدم في الهندسة الصحية [6]

ونقل المؤلفان عن مخطوط في الحسبة بمكتبة الجامعة الفرنسية ببيروت نصا مؤداه أنه لا يجوز لأحد إخراج كل ما فيه أذية وأضرار على السالكين في الشوارع كمجاري الأوساخ الخارجة من الدار في زمن الصيف إلى وسط الطريق [7] ، كما نقلا أيضاً نصا يفيد أن على من ينقلون السماد إلى ظاهر البلد أن يحفروا له حفائر ، فإذا نقل إليها يطم عليه حتى تنقطع رائحته ، فلا يتأذى منه أحد ، ويمنعون من نقل ذلك إلى الماء وطرحه فيه أو ما حوله [8]

ومن القواعد الشرعية الاسلامية أنه إذا كان لدار مسيل قذر

١ — نفس المصدر ص ٨
٢ — نفس المصدر ص ٩
٣ — نفس المصدر ص ١٣
٤ — الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٦
٥ — حفريات الفسطاط ص ١٠٦
٦ — راجع نفس المصدر ص ٤٨ و ٦١ و ٧٢ ومن ١١٣ إلى ١١٦
٧ — نفس المصدر ص ١٠٦
٨ — نفس المصدر ص ١١١

في الطريق العام، وكان مضرا بالعامة، أو حتى في الطريق الخاص وكان مضرا بأهله، يرفع ضرره ولو كان قديما ولا يعتبر قدمه [١]

وهكذا تتظاهر أدلة التاريخ والآثار والشريعة في الشهادة بأن النظم الاسلامية أولت الصحة الوقائية عناية تامة

وتلتفت النظم الاسلامية إلى الأماكن الموصوفة في مصطلح وزارة الصحة الآن بأنها « مقلقة للراحة أو ضارة بالصحة » وتتصرف تلقاءها على نحو يشبه ما تجرى عليه اللوائح المتعارفة حاليا.

فلا يجوز مثلا إقامة مخبز أو مطحن أو مدق في (الحيطان) التي كانت وقتئذ بمثابة مرافق صحية [٢] . ويمنع نصب المنوال لاستخراج الحرير من دود القز إذا تضرر الجيران بالدخان ورائحة الديدان [٣] . بل إن من حق الجيران منع من يتخذ داره حماما إذا تأذوا من دخانه [٤] . ويمنع دقاق الذهب من دقه بعد العشاء إلى طلوع الفجر إذا تضرر الجيران من ذلك . وليس لأحد أن ينشئ بستانا في أرض رخوة يتعدى ضررها إلى جدار الجيران، وكذا يمنع من يجعل دكانه طاحونة أو معصرة أو حماما أو اصطبلا، وليس لأحد أن يقيم تنورا في وسط تجار الأقمشة إذا كان يضرهم دخانه [٥]

وقد كان المسلمون أول الأمر يكرهون المغالاة في البنيان والاسراف فيه، ولكنهم بعد سايروا مقتضيات الزمن : كتب عمر بن الخطاب إلى عتبة بن غزوان وأصحابه بالبصرة لما بنوا باللبن : قد كنت أكره لكم ذلك، فاذ فعلتم ما فعلتم فعرضوا الحيطان وارفعوا السمك وقاربوا بين الخشب.» [٦]

والاجتماع الإسلامي يعرف راشداً ما يجب مراعاته في أوضاع البلدان . يقول ابن خلدون : « ومما يراعى في ذلك للحماية على الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها ، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة ... والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب » [١] . ويمضي ابن خلدون فيتحدث عن المرافق العامة التي يستلزمها نفع البلد ودفع المشقة عن أهله ، فيشير إلى أهمية قرب الماء وطيب المرعى للسائمة [٢]

وعناية النظم الإسلامية باتساع الطرق عناية بالغة . يذكر الماوردي — وهو بسبيل تعداد مواضع ولاية القاضي — أن منها « النظر في مصالح عمله من الكف عن التعدي في الطرقات والأفنية وإخراج ما لا يستحق من الأجنحة والأبنية » ، ويذكر أن للقاضي أن ينفرد بالنظر فيها وإن لم يحضره خصم لأنها من حقوق الله تعالى التي يستوي فيها المستعدي وغير المستعدي ، فكان تفرد الولاية بها أخص » [٣]

وآية نضج ذوق وتقدم حضاري أن من أوقاف المسلمين ما كان على تعديل الطرق ورصفها [٤]

وعند الماوردي أنه إذا بنى قوم في طريق سابل منع والي الحسبة من ذلك وإن اتسع الطريق ، « ويأخذهم بهدم ما بنوه ولو كان المبنى مسجداً ، لأن مرافق الطرق للسلوك لا للأبنية » [٥]

والفقه يحرص حرصاً بعيد المثالية على حق الجمهور في الانتفاع بالطرق العامة ، فليس لأهل سكة أن يسدوا رأسها ، ولا أن يبيعوها ولو كانوا أصحابها وأنفقوا عليها ، ولا أن يقتسموها فيما بينهم ، ذلك أن الطريق الأعظم — كما يقول أبو حنيفة — « إذا كثر فيه الناس كان لهم أن يدخلوا هذه السكة حتى يخف الزحام » [١] وإخراج مصاطب الدكاكين إلى ممر الجمهور عدوان على المارة يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله [٢] . ولا يجوز لأحد أن يبني ظلة تضر الطريق ، « ومن خاصمه من المسلمين قبل البناء فله أن يمنعه ، وبعد البناء له أن يهدمه [٣]

ويمضي الحسبة الإسلامية في النهوض بما تنهض به الآن

١ — راجع مثلا مرشد الحيران لقدري باشا ص ١٢ و ١٣
٢ — الفتاوى الخيرية ج ١ ص ٣٦٤
٣ — نفس المصدر
٤ — نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٦
٥ — نفس المصدر ج ١ ص ٣٦٤
٦ — البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٦

١ — المقدمة ص ٣٨٩
٢ — ص ٣٩٠
٣ — الأحكام السلطانية ص ٢٤٣
٤ — رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٠
٥ — الأحكام السلطانية ص ٢٤٤

مصلحة التنظيم والمجالس البلدية ، فالميازيب الظاهرة من الحيطان فى زمن الشتاء يأمر المحتسب أصحابها « أن يجعلوا عوضها مسيلاً محفوراً فى الحائط مكلساً يجرى فيه ماء السطح ؛ وكل من كان فى داره مخرج للوسخ إلى الطريق فإنه يكلف سده » [4]

وعلى المحتسب أن يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطين المجتمع وغير ذلك مما يضر بالناس [5]

ومن قول الرسول : إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وهو — صلوات الله عليه — يقرر أن من قضى حاجته تحت شجرة مثمرة أو على طريق للسير أو على حافة النهر فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين [6] . والمسلمون بعده يتناهون عن توسيخ الطرقات ، فالسمرقندى مثلا يقول: « ولا ينبغى للعاقل أن يتمخط أو يبزق فى ممر الناس لكيلا يصيب أقدامهم » [7]

لذلك ، كانت نظافة الطرقات لافتة ، وقد رأى ناصر خسرو شوارع طرابلس الشام وأسواقها من الجمال والنظافة بحيث ظن أن كل سوق قصر مزين [7] . وفى صيدا رأى سوقا جميلة نظيفة ظن أنها زينت لقدم السلطان أو بمناسبة بشرى سعيدة ، ثم ما لبث أن عرف أنها عادة المدينة دائما [9]

ومن اللفتات الفقهية الكبيرة الدلالة أن شغل البائع للطريق الضيق على نحو يتضرر منه الناس يوجب عدم الشراء منه « لأن القعود على الطريق بغير عذر مكروه . ولهذا لو عثر به إنسان وهلك كان ضامنا ، فالشراء منه يكون حملاً له على المعصية وإعانة له على ذلك » [10]

---

١ ــ منية المفتى ليوسف بن أبى سعيد السجستانى (مسائل الطرق والأبواب ... الخ) مخطوط بدار الكتب الملكية رقم ٤٤٢ فقه حنفى وجامع الفصولين ج ٢ ص ١٩٧

٢ ــ الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١١

٣ ــ الفتاوى الأنقروية ج ١ ص ٣٦٧

٤ ــ الشيزرى ص ١٤

٥ ــ نفس المصدر

٦ ــ بستان العارفين للسمرقندى ص ١٨١

٧ ــ نفس المصدر ص ١٢١

٨ ــ سفرنامه ص ١٣

٩ ــ نفس المصدر

١٠ ــ الفتاوى الأنقروية ج ١ ص ٣٣

والمرور فى الطرق له قواعده ، فيستحب للراجل مشيه فى جانب الطريق ، وللراكب فى وسطه إذا كان فى مصر ، وإن كان فى الفضاء فوسط الطريق للراجل وحافتاه للراكب . ويستحب المتنقل أن يوسع للحافى عن سهل الطريق [1] . وقد أشار ابن بطوطة إلى أن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك [2]

وترى الشريعة الإسلامية أن المنافع العامة كالقناطر والطرق النافذة والشوارع العامة التى ليست بملك لمعين لا يجوز لأحد أن يختص بها ولا أن يمنع غيره الانتفاع بها بل تبقى لمنفعة عامة [3]

وشطوط الأنهار — ويا طالما نراها الآن مخصوصة بمبانى الأغنياء — ينعقد الإجماع فى الإسلام على منع البناء فيها

ولا شك أن الشريعة تستهدف من هذا أن يكون نفع الشطوط ومتعتها مشاعاً بين الأهلين غنيهم وفقيرهم . وقد ذكر ابن إياس فى أخبار سنة ٨٩٦ هـ أن الشيخ جلال الدين الأسيوطى أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة بناء على ذلك الإجماع ، وأن ما ذكر من جواز ذلك فى مذهب الشافعى باطل وليس له صحة فى كتب الشافعية قاطبة [4]

والبيوت لا تترك الحرية المطلقة لأصحابها فى تعليتها على حساب مصلحة الجيران . قيل : يا رسول الله ، ما حق الجار على الجار ؟ قال : — وعد أموراً — . . وأن لا تطيل بناءك عليه إلا بطيبة من نفسه [5]

. . .

ولا يفوت النظم الإسلامية أن تهتم بمطارح الحصائد أو ما نسميه الأجران ، فهى تقر حاجة القرية إليها وتمدها « بمنزلة الطريق والنهر ، ولذلك لا تعتبر مواتا ، بل تعتبر تبعاً للعامر لأنها من مرافقه » [1]

. . .

بقى أن نسأل استيفاء للبحث : كيف كانت حال المساكن وتخطيط البلدان فى حواضر أوربا بله فى ريفها ؟ سندع العلامة

---

١ ــ بستان العارفين للسمرقندى ص ١٢١

٢ ــ رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٠

٣ ــ مرشد الحيران ص ٣

٤ ــ بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧١

٥ ــ تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٧٠

عهود الظلام

للأستاذ ابراهيم الوائلي



من قصور رحيبة الأفيـاء   وليـال مجنونة حمراء
فتنة الحالمـين والنـدماء   نهزة العابثين فى الظلماء
من كؤوس تمج بالصهباء   وثغور ممرغت بالدماء
من ثيـاب ترف بالأشذاء   تتحدى النجوم بالأضواء
من صدور محمومة الأهواء   ونحور تموج باللألاء
ونهـود عربيـدة خرساء   تتنزى على رؤى الخيلاء
كان هزء الطبيعة الحمقاء
بالجماهير من بنى الإنسان
• • •
من بقـايا هيا كل جوفاء   نحتت من حجارة صماء
فى حيـاة مجنونة رعنـاء   تحسب المجد فى فتون المرائى

Draper يجيب عن هذا وهو يصف أوربا إبان القرون الوسطى ، يقول وقوله واضح الدلالات : « كانت القـــارة مغطاة تقريبا بالغابات الـكثيفة (يقصد لطول ما أهمل الناس الزراعة) ، وكانت المستنقعات تحيط بالمدائن والأديرة ، وكانت تتصاعد منها روائح مهلـكة ترمى الناس بالموت . وفى باريس ولندن كانوا يتخذون المساكن من الخشب والطين المخلوط بالتبن والقصب ، ولم تـكن فيها نوافذ ، وحتى بعد اختراع آلات النشر الميكانيكية لم تكن أرضيات المساكن من الخشب . أما البسط فلم يكونوا يعرفونها ، وكانوا يستعيضون عنها بالقش يفرشونه على الأرض . ولم تـكن المداخن معروفة لديهم ، فكان الدخان يتصاعد من ثقب فى سقف الدار بعد أن يجوس خلالها معرضا أهلها لـكل خطر . ولم يكن الناس يعرفون النظافة ما معناها ، وكانوا يلقون بأحشاء الحيوان وفضلات الخضر تجاه بيوتهم فى أكوام تنبعث منها ريح متلفة . وكان الرجال والنساء والأطفال يحتشدون للنوم فى حجرة واحدة ومعهم فى حالات كثيرة حيواناتهم المنزلية ، ووسط هـــذه الفوضى الأسروية كان من المستحيل أن تظفر الفضيلة والحياء بشىء من الاهتمام » [٢] ويمضى المؤلف فى وصفه مشيراً إلى عدم وجود المجارى وكيف كانت تلقى المياه والأقذار فتصيب المارة ، وكيف كانت الشوارع متربة ضيقة مظلمة [٣]

وبعد ، فلسنا نـكتم أننا شديدو الإيمان بالأثر الصالح الذى تستتبعه إحاطتنا بأساليب الغرب فى علاج مشكلاته الاجتماعية ، ولـكننا مع ذلك نلح فى الدعوة إلى التوفر على دراسة الحضارة الاسلامية ، وبخاصة فى جوانبها الاجتماعية . ندعو إلى ذلك لا ابتغاء معلومات فحسب ، فالمعلومات وحدها قد تـكون ميتة ، ولـكن استيحاء التراث أثبت حيويته وفاعليته ، ولا ندعو إلى ذلك بدافع من عصبية وإنما قضاء لواجب العلم والتاريخ والانسانية ؟

لبيب السعيد

---

١ ــ اللباب فى شرح مختصر القدورى ص ٢٠٢

٢ ــ Les conflits de las Science et de la Religion P109, 191

٣ ــ نفس المصدر

في وسام مذهب ورداء ... وضروب النعوت والأسماء
من صروح منيمة شماء ... ساخرات بالبؤس والبؤساء
من نفوس حقيرة سوداء ... ورؤوس مريضة بلهاء
خلقتها سياسة الدخلاء ... من هباء وذاك شر بلاء

لم يعد في الحياة أي رجاء
لشعوب تعيش كالديدان

• • •

من بروج تشاد فوق الجماجم ... حافلات بكل غض وباسم
غرف كالخيال في رأس حالم ... وأفانين من حصيد المغانم
هي في موكب الحسان الكرائم ... وهج الشمس ذوبته النسائم
تتحلى به (العذارى) النواعم ... في نحور رقيقة ومعاصم
وأكف ندية ومباسم ... كزهور ترف بين الكمائم
تحسب الطهر من بقايا المآثم ... وتخال النهى خرافات واهم

عصفت بالضعاف شتى المظالم
كالأعاصير في بقايا دخان

• • •

من قوانين شرعت ومحاكم ... وحدود تنوعت وعواصم
وزعامات مستبد وآثم ... سابح في قرارة الشر هائم
فإذا الحق أن تداس المحارم ... بين مستضعف على الذل جاثم
ومقيم على استلاب الغنائم ... من عراة على الرمال سوائم
أثقلتهم حياتهم بالمغارم ... بالتي لا يردها سخط ناقم
من شيوخ تدثروا بالعمائم ... لم يهيموا بغير حل الطلاسم

كان أفق الحياة أسود قاتم
في شعوب تنوء بالحرمان

• • •

من وحوش مجنونة الخطوات ... تشتهي حتى بقايا الرفات
لم تدع في الخرائب الموحشات ... غير أشباح أعظم نخرات
من جياع على الصخور حفاة ... كقبور تمج بالأموات
فإذا بالجنان كالفلوات ... وإذا بالحياة مثل الممات
من جناة مدمرين غزاة ... وطغاة مخربين قساة
سلطتهم سياسة الفلتات ... في عهود الظلام والكبوات

قد ركسنا فكان عهد سبات
وأفقنا فكان عهد هوان

• • •

من ضلالات أحمق مأفون ... مستهين بكل شرع ودين
وضراعات أبله مسكين ... يتخطى السنين بعد السنين
وهو في صمته الطويل المهين ... من سياط تئن فوق المتون
وسجون تقام حول سجون ... ليس فيها سوى الظلام الحزين
وانطلاقات زفرة وأنين ... يتلاقى بها دخان الجفون
من قوى ببطشه مفتون ... وأسير مكبل موهون

جن ظلم الحياة شر جنون
بالألى يركعون للأوثان

• • •

من أراجيف عالم محموم ... يتغنى بنافثات الجحيم
حامل في يد قوى التحطيم ... وبكف مخدرات السموم
بين وعد مزيف موهوم ... ووعد غامض الخطا مزعوم
من مدل بطيشه المذموم ... تزدهيه مواكب التفخيم
فهو في نشوة الخيال الأثيم ... يحسب الشمس من صغار النجوم
من شقي معذب محروم ... مستغيث بصمته المكلوم

مزق العدل كل عات غشوم
فتلاشى كضحكة النشوان

• • •

أيها الركب طال عهد الحداء ... والسرى والطريق والظلمات
أنت تطوى مجاهل الصحراء ... بين عصف الرياح والأنواء
أترى تستريح بعد عناء ... ونضال مكلل بالدماء
فلقد طال منك في البيداء ... تعب لم يزدك غير بلاء
أيها الركب رب ليل شقاء ... يتوارى بلمحة من ضياء

فترقب لعل في الأجواء
قبسا يستجيب للحيران

القاهرة ... ابراهيم الوائلي

صلوات

للأستاذ كامل محمود حبيب

من أعماق قلبي أناديك يا ربي !

فهل يستطيع صوتي الضعيف أن يبلغ موطئ عرشك ؟

إنني أخشى أن يتلاشى صوتي في ظلمات ذنوبي فلا تنفتح له أبواب رحمتك

ولكن عظمة اسمك الكريم تزلزل قوتي وتعصف بجلدي فأخر ساجداً وقد أخذتني الرهبة وغمرني الخشوع واغرورقت عيناي بالدموع في توسل عليّ أستطيع بضعفي أن ألج بابك ... باب الرحمة والغفران

فلا تغلق من دوني باب رحمتك وأنا أناديك من أعماق قلبي : يا ربي !

* * *

إن حبي لك ، يا إلهي – يتغلغل ، أبداً ، في أغوار روحي فتصفو من كدر

وإن روحي تصفو أبداً لأنني لا أتعبد إلا لك أنت وحدك ، يا إلهي

وحين تصفو روحي تسمو فوق هذا العالم الأرضي

فأرى من خلال حبي عظمتك الخالدة نوراً يسطع فيغمر العالم كله

وأتنشقها أنفاساً ندية عطرة تنتشي لها خواطري

وأسمعها لحناً موسيقياً سماوياً يتطرب له فؤادي

وأحسها حياة طاهرة نقية تتدفق في دمي

وأشعر بها تضمني إليها في رفق فأخر ساجداً في خشوع وقد اغرورقت عيناي بالدموع في توسل وأنا أناديك من أعماق قلبي : يا ربي !

* * *

يا إلهي ، لا تدع شواغل الحياة الأرضية تجذبني إليها بأمراس غلاظ ، فأنا أطمع أن أكون إلى جانبك أبداً

واصرفني عن الأمل الخلاب الزائل الذي لا يجذب إلا النفوس المتداعية ابسمها بميسم التراب ... اصرفني عنه إلى الفكرة السامية التي تخلق الخلود

ولا تدع وساوس الدنيا تطوف حوالي فتصرفني عنك لحظة واحدة

ولا تدع نفسي تدنسها الخواطر الوضيعة أو تلطخها الأكاذيب التافهة

ولا تدع قلبي يخطفه ألق الرذيلة أو يشغله بريق المتعة

ولا تدع روحي تسيطر عليها شيطانية المادة فتنتزعها من صفاء السماء

فأنا أطمع أن أكون إلى جانبك أبداً

لأنني أخشى أن يتلاشى صوتي الضعيف في ظلمات ذنوبي

فلا تنفتح له أبواب رحمتك حين أناديك من أعماق قلبي : يا ربي !

* * *

أنا – يا سيدي – لا أخشى البطشة الكبرى لأنني أطمع في رحمتك العظمى

ولا أخاف الثورة العاتية لأنني أرنو إلى بسمتك الرقيقة

ولا أرهب العاصفة الهوجاء لأنني أهفو إلى صفائك الرقراق

ولا أفرق من كنف الظلام لأنني أنظر في شغف إلى فلق الإصباح

فأنت علمتني أن القوي لا يعبأ بالضعيف ، وأن العظيم لا يتحدى الضئيل

وأنت علمتني أنني شعاع من فيض نورك الذي يغمر العالم

وأنني نغمة من اللحن الساحر الذي ينبعث – دائماً – من بابك الخالد

وأنت لم تعلمني الدين الذي يبذر في القلب الرهبة ويغرس في النفس الخنوع وينفث في الروح الخوف ويقيد الهمة بالاستسلام ، بل علمتني الدين الذي يبذر في القلب الجرأة ويغرس في النفس العظمة وينفث في الروح الشجاعة ويدفع الهمة إلى القمة

فدعني أحس مس عطفك في أوتار قلبي حين أجلس إليك في خلوة

فأنا أخشى ألا يبلغ صوتي الضعيف موطئ عرشك حين أناديك من أعماق قلبي : ياربي !

* * *

أزح عني خبث الطمع الذي يستلب الانسان من الانسانية

ونقني من شوائب الأماني الزائفة التي تطفئ من النفس الأنوار الروحانية

وادفع عني نزوة الكبرياء التي تسم الروح بالغرور

ونجني من الخديعة التي تنحط بالرجل عن معاني الرجولة

واجعلني — في أخلاقي — طفلا لم تدنسه الحياة

فالطفل لا يعرف المعاني الشيطانية في العداوة والبغضاء والغيظ، ولا يعرف الأحقاد التي تحيل الحياة الناعمة إلى جحيم يتلظى

اجعلني — في أخلاقي — طفلا لم تدنسه الحياة ثم لا تثقلني بأعباء الرجل الذي يتمرغ دائما في الثرى الأرضي

فأنا أطمع أن أكون إلى جانبك أبداً ليرق إليك صوتي الضعيف حين أناديك من أعماق قلبي يا ربي !

* * *

لقد قضيت عمراً طويلا أنطوي على نفسي ، وأخلو إلى عبادتي وأسكن إلى تسابيحي وانطوت سنوات وصوت السماء يناديني : يا عبد ؛ إن الألوهية لا تعيش بين الجدران ، فانطلق في فجاج الأرض لترى العظمة وتلمس القوة وتسمع الألحان العذبة . . ولتجد الحقيقة

ولكن ذنوبي كانت قد طمت على روحي فلم أعد أسمع الحق فلما صفت روحي من الخبث وتطهرت نفسي من الرجس ، طرت من خلوتي لأراك — يا إلهي — وألمسك وأسمعك

حينذاك ، عرفت أنني ضيعت عمري في شيء لا غناء فيه ، فاغفر لي — يا إلهي — جهلي وغفلتي

آه ، يا قلبي ، إن إيمان الراهب هو إيمان شيطاني أبله

فدعني يا إلهي أكفر عن رهبانيتي الحمقاء بالكد والجهاد في لظى الحر وزمهرير البرد ، لأكون إلى جانبك أبدا فيرق إليك صوتي الضعيف حين أناديك من أعماق قلبي : يا ربي !

. . . .

امنحني — يا إلهي — القوة لأحمل آلاءك العظام

وامنحني الهدوء الذي يسع حماقة أهلي وجهل أخي

وامنحني العقل الذي يغفر زلات أقاربي ويغضي عن أخطاء رفاقي

وامنحني القدرة على أن أقيل عثرات جاري

وامنحني العزة التي تترفع عن تفاهات الحياة

وامنحني الكبرياء التي تسمو فوق النزوات الطائشة

وامنحني الخضوع الذي لا أتعبد به إلا لك أنت وحدك فأعيش فوق الناس جميعاً ؛ ثم امنحني العطف الذي يتدفق من لدنك ليمس أوتار قلبي في رقة وأنا أناديك من أعماق قلبي : يا ربي

. . .

كلما ذكرتك يا إلهي — أحسست بالراحة والهدوء والسعادة فعلمني كيف أناديك نداء رقيقاً تنفتح له أبواب رحمتك

وعلمني كيف أنطلق في هدوء إلى محرابك أنتظر فيض نورك

وألهمني النشيد الإلهي العذب لأوقعه على أوتار قلبي في خشوع فيملأ حياتي بالسعادة ويفعم روحي بالطمأنينة

ثم احبني بالقيثارة السماوية لأعزف عليها النشيد الإلهي العذب كلما ذكرتك عسى أن تبلغ نغماتي موطئ عرشك كلما ناديتك من أعماق قلبي: يا ربي !

. . .

وإذا شئت — يا إلهي — أن تقطف هذه الزهرة الغضة النضيرة — حياتي — لتطهرها من الدنس الأرضي وتضمها إلى أزاهير جنتك الوارفة ، فلا تقطفها حين تعصف بها لأواء الحياة وشدة الأسى وغلظة اليأس ؛ ولكن اقطفها وهي غضة تمرح بين ندى الصباح وبسمات الفجر ، وقد هزها الطرب وأفعمها النشاط وتأرج منها العطر وتألق فيها النور ، لتعيش في جنتك فتية زاهية تقوى على أن تناديك من أعماق قلبها : يا ربي !

كامل محمود حبيب

الغزالي أعجب شخصية في تاريخ الإسلام

للأستاذ قدري حافظ طوقان



الغزالي حجة الإسلام وزين الدين ومن أكبر أعلام الفكر الذين يمتز بهم الإسلام ويفخر. ظهر في القرن الخامس للهجرة في عصر سادت فيه آراء الشك والاختلافات وعمت أوساطه الفوضى في المعتقدات والمذاهب. وكان لهذا أثر على حياة الغزالي كما كان لنشأته الصوفية والروحية أثر كبير عليها. فنزع إلى الانتصار للدين وسلك في ذلك مسلكا جديداً لم يسلكه أحد من قبله، حتى قال (رينان): « .. إن الغزالي هو الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي انتهج لنفسه طريقاً خاصا في التفكير ... »

واجه الغزالي في أول حياته مذاهب مختلفة من كلام وباطنية وفلسفة وتصوف وساورته نزعات التشكيك والتحليل المنطق، واحتار في أمره ولم يدر أيها يتبع. وقد لجأ إلى دراسة هذه المذاهب واختبار حسنها وسيئاتها رائده في ذلك الوصول إلى الحقيقة التي تروي النفس وتنير العقل، فخاض بحار التفكير وتوغل في كل مظلمة واقتحم كل مشكلة وورطة، وتفحص الفرق والعقائد ليميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع. درس الفلسفة ليقف على كنهها، ودرس علم الكلام ليطلع على غايات المتكلمين ومحاولاتهم، ودرس الصوفية ليعثر على سرها. وكان في دراساته واسع الصدر سمحا بتفكيره وحلق، وقد أدرك أنه لا يمكن المحقق أو الباحث عن الحقيقة المتعطش لها أن يستوعب سبلها بغير الجمع بين سائر مظاهرها مما يقال للشيء أو عليه

إن هذا الطريق الذي سار عليه الغزالي يدل على قوة شخصيته وعلى إيمانه بنفسه وثقته بمواهبه ومزاياه مما ساعده في الانتصار على خصومه وعلى الفلسفة.

والغزالي يمتاز على غيره من علماء الكلام في كونه قرب الدين من العقل الاعتيادي وكشف دقائقه أمام أذهان العامة، في حين أن الكثيرين من الفقهاء، ورجال الدين في عصره والعصور التي سبقته ساروا في تفكيرهم على أساس من الغموض وفي بحار من المعميات والأسرار، وذلك مخافة على شخصياتهم من بروزها على حقيقتها ضعيفة واهية، وخشية من نفوذهم أن يتلاشى إذا وضحت الأمور وزال الغموض.

والغزالي حين قرب الدين لم ينزل به، بل استطاع بما أوتي من قوة المعارضة وصفاء التفكير وسعة الاطلاع؛ أن يرفع الإيمان من « حضيض السذاجة إلى قوة التفكير العالي مما جعل المفكرين في الشرق والغرب يرون فيه المثل الأعلى للتفكير الإلهي والنور المبدد لروح الشك والتشاؤم ... » وقد قال سارطون في هذا الشأن: « إن أثر الغزالي في العلم الإلهي أعظم من أثر القديس توما ... »

***

درس الغزالي الفلسفة « ... ولم يكن الذي حمله على دراستها مجرد شغف بالعلم بل كان يتطلع إلى مخرج من الشكوك التي كان يثيرها عقله ... » ليطمئن قلبه ويتذوق الحقيقة العليا. وخرج من دراساته هذه وسياحاته وتنقلاته بكتب قيمة نفيسة أهمها كتاب تهافت الفلاسفة، وهو عمل عظيم لا يخلو من قيمة فلسفية إذ هو « ثمرة دراسة محكمة وتفكير طويل، يبين المسائل الكبرى التي كانت محل خلاف بين الدين والفلسفة ... » مما يدل على طول نظر في الفلسفة ودراسة وافية لها. وقد بلغ فيه أقصى حدود الشك فسبق زعيم الشكيين (دافيد هيوم) بسبعة قرون في الرد على نظرية العلة والمعلول

لقد وصل الغزالى من دراساته الفلسفية وغيرها إلى ما وصل إليه (كانت) فيما بعد ، من أن العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً الغطاء عن جميع المعضلات ، وإنه لابد من الرجوع إلى القلب وهو الذى يستطيع أن يدرك الحقائق الإلهية بالذوق والكشف وذلك بعد تصفية النفس بالعبادات والرياضات الصوفية . وهو بذلك حاول أن يخضع العلم والعقل للوحى والدين لكى يصل إلى الحقيقة العليا وعلى الرغم من محاولاته إخضاع العلم والعقل للوحى والدين كان يمجد العقل ويرى فيه (كما جاء فى كتاب إحياء علوم الدين) منبع العلم ومطلعه وأساسه وإن العلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس وقد أتى بجملة أحاديث نبوية تشير إلى مقام العقل وشرفه .

والغزالى لم يأخذ بأقوال فلاسفة اليونان ، بل كان يعرضها ويسلط عليها العقل فيخرج بنقد صائب ورأى عبقرى . لقد اعترض على قول (جالينوس) اليونانى « ... إن الشمس لا تقبل الانعدام » ويستدل على ذلك بأن الارصاد لم تدل على أى تبدل فى حرارة الشمس أو حجمها . وهنا يأخذ الغزالى هذا القول ، ويرى فيه خطأ وخروجا عن الصواب . فأرصاد القدماء ليست إلا على التقريب ، والشمس قد تخف حرارتها ، وينقص حجمها دون أن يلاحظ الناس ذلك فى مدة قصيرة ، وعلى ذلك يخرج الغزالى برأى صحيح هو ماتوصل علماء الفلك الحديث . فلقد توصل العلم إلى أن الشمس تحتضر على حد تعبير السير جيمز جينز وأنها فى تناقص . وقد حسبوا ما ينقص منها (على الرغم من القوى والذخيرة التى تصل إليها بعوامل شتى) فوجدوا أنها تفقد مادتها عن طريق الاشعاع (٣٦٠) ألف مليون طن فى كل يوم .

وللغزالى آراء تدل على حسن إيمانه بالبشرية وصفاء نظره إلى الخليقة الانسانية وهو لم يأخذ بأقوال الذين يجعلون الشر مركباً فى طبع الانسان ، بل أنه أحسن اعتقاده فى النشأة فجعله خيراً . ويرى أن الفطرة الانسانية قابلة لكل شىء فالخير يكتسب بالتربية وكذلك الشر . وفى رأيه أن الانسان لا يميل بفطرته إلى إحدى الجهتين وإنما هو يسعد ويشقى تبعاً لعوامل عديدة تتعلق بالأبوين والمحيط غير حاسب أى حساب للوراثة وما إليها

وأورد الغزالى فى كتاب الاحياء قواعد ومبادىء ليسير عليها العلم والمتعلم . ويجد المتصفح لها أنها سامية الغايات فيها تحليل نفسى دقيق يدل على النضج وخصب القريحة وعلى معرفته التامة بنفسية العلم والمتعلم . ويرى فيها المؤرخون أنها لا تقل عن النظريات الحديثة فى علم التربية . وكذلك وضع الغزالى مبادىء جليلة فى آداب المناظرة هى فى الواقع الدستور الذى يجب أن يسلكه المتناظرون وأصحاب الجدل والبحث . وفى رأى الغزالى أن الخروج على هذه الآداب قد أشاع الخصومات وأنشأ المداوات لأن الغاية من الجدل والمناظرة لم تكن فى الحقيقة كما يجب أن يكون ، بل كانت التغلب على الخصم والتفوق على الناظر

والغزالى لم يذهب مذهب المعتزلة فى أن العمل يكون حسناً أو قبيحاً لأنه حسن أو قبيح بحكم العقل . كما أنه لم يقل أنه حسن أو قبيح بحكم الشرع ، لكنه قال أن الحسن والقبح يرجعان إلى العقل والشرع معاً . فالعمل خير إذا وافق العقل والشرع ، وشر إذا خالف العقل والشرع . وهكذا قاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع

وتوفر الغزالى على بحث الأخلاق فأجاد فى هذا الباب وترك أبقى الآثار وأرفعها شأناً ضمنها كتابه الشهير (احياء علوم الدين) لقد نهج الغزالى فى فلسفة الأخلاق الناحية الدينية من حيث النظر والتقدير والناحية التحليلية النفسية من حيث التناول والوصف والتفسير

والغزالى يجعل للعلم منطقة وللدين منطقة . ولكل مزاياها وأحوالها الخاصة والنفس البشرية تتصل بالمنطقتين ، فهى تتصل بالعالم الحسى عن طريق المعرفة والبرهان وبالعالم الروحى عن طريق الاختبار الشخصى والكشف

ويرى أن السعادة الروحية لا تأتى من الايمان الفلسفى بل بالعمل المؤدى إلى الاتصال بالروح الأعلى . ومن هنا يتبين أن الغزالى حين يتناول الصوفية والروحيات فانه يحررها من سخافات غلاتها ، وحين يتناول الدين فانه يحرره من أطمار الكلاميين ثم « يمزج حيوية الأول بحيوية الثانى ويولد منهما مذهباً روحياً يقبله العقل ولا يدحضه البرهان ... »

وقد أعرض الغزالى عن معرفة هذا العالم عن طريق العقل « ولكنه أدرك المسألة الدينية إدراكا أعمق من إدراك فلاسفة عصره .. » فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين شأن أسلافهم اليونان فاعتبروا أن أمور الدين ثمرة لتصور الشارع ووهمه ، بل هو ثمرة لهواه . واعتبروا الدين انقياداً أعمى أو ضرباً من المعرفة فيه حقائق أدنى من حقائق الفلسفة . وقد عارض الغزالى هذا الرأى واعتبر الدين ذوقاباطنيا لا مجرد أحكام شرعية أوعقائد، بل هو شيء أكثر من ذلك ، وأنه شيء تتذوقه الروح . ويعلق (دى بور) على هذا فيقول « ... ولايتاح لكل إنسان أن يبلغ فى هذا الأمر مبلغ الغزالى ، والذين لايستطيعون متابعته إذ يعرج فى مدارج السالكين متخطياً المعارف المكتبية كلها ، لا محيص لهم عن الاقرار بأن محاولاته فى الوصول إلى الله ليست أقل شأناً فى تاريخ العقل الانسانى من مذاهب فلاسفة عصره ، وإن بدت هذه المذاهب أدنى إلى اليقين ، لأن أصحابها إنما ساروا فى بلاد قد كشفها غيرهم من قبل ... »

وجاء فى كتاب نهاية الميزان ما يشير إلى أن الشك هو طريق اليقين لأن الشكوك هى الموجبة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال .

ولم يفت الغزالى أن ينبه فى مواطن عديدة من كتبه إلى أنه : « ... يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك فى نفوس الضعفاء ، وخص الرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المألوف ... » فهو يرى أن يستعمل الشك بمقدار محدود وهذا المنهج « ... يبين أن الغزالى يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال ... »

والمجال لا يتسع لعرض الآراء المختلفة التى أوردها الغزالى فى كتبه فى الأخلاق والآداب والحقوق والواجبات. ولكن يمكن القول أنه ترك تراثاً ضخماً فى كتبه وتآليفه تجعله من الخالدين. وهو يعد بحق إمام أهل البيان فى الأسلوب العلمى والأسلوب الاجتماعى ومزاج من علوم شتى « ... أنضجها البحث وصقلها التفكير وأنضجتها تجاربه وشكوكه القاسية التى عاناها فى نشأته ... »

وأخيراً نعرض لمقام الغزالى عند الغربيين فنقول: كان للغزالى قيمة ومقام عند الغربيين وقد أحلوه المكان اللائق ودرسوا مؤلفاته ورسائله وكتبه وكتبوا عنه المؤلفات الطوال . ومنهم من يتعصب له ويرى فيه واحداً من أربعة . يقول الدكتور (زويمر) : « ... كل باحث فى تاريخ الإسلام يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظام وهم : محمد نبى المسلمين والبخارى والأشعرى والغزالى . . » ويرى (دى بور) أن الغزالى أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام . وكتب (كارادى فو) عن الغزالى وقد أنصفه بعض الانصاف . وهناك رسائل كثيرة كتبت عن الغزالى بالانكليزية والافرنسية والألمانية ، وهى تدل على أنه شغل الباحثين والمستشرقين أمثال الدكتور مولتر ، وماكدونالد ، وستيفيلد وشمولدز ودى بور والأب بوبج وماسينيون وجولدزيهر وغيرهم ، فكان محل اهتمامهم وعنايتهم ، كما تدل على فضله وأثره الكبيرين فى العلوم وخاصة فى العلوم الالهية والصوفية والأخلاق

نابلس قدرى حافظ طوقان

الهجرة الكبرى في سبيل السلام

للأستاذ محمد محمود زيتون

« . . والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . »

قرآن كريم



لم تكن هجرة النبي عليه السلام إلا مرحلة من مراحل الدعوة إلى السلام ، فقد دعا العرب إلى الحق والخير ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، فآذوه فى شخصه وأهله وصحبه ، وطوى الزمن ثلاثة عشر عاما ، وهم بين مضروب ومشجوج ومعذب بالرمضاء تارة ، وبالحديد والنار تارة أخرى

واحتل المعذبون مكانهم فى التاريخ ، وتلألأت صفحاته بآل ياسر وبلال وخباب وزنيرة ، أولئك الذين ابتلوا فصبروا ، وامتحنوا فشكروا ، وهل الإيمان إلا الشكر والصبر

وإنها لكبيرة على النفس أن تحتمل من العنت والرهق ما لا تطيق ، وأكبر من ذلك أن يغير عشرات الرجال وقليل من النساء معهم ، مجاهل الجزيرة فى سنوات : فاذا الوجه العباس يرتد بساما ضحوكا ، والقلب المتحجر يرفض بالرحمة والرقة ، والعقل البليد يتفتح لنور الحق ، ويستجيب لصوت السماء

وكان طبيعيا أن يكون الجهر بالإسلام بمثابة إعلان الثورة على جميع الأوضاع المألوفة ، ولكن لم يؤلف عن العربى سكوته على الضيم والهوان ، فكيف بهؤلاء الصفوة المستنيرة يفتنون فى دينهم ، ويستضعفون فى وطنهم !

تلك المشكلة التى تتطلب الحل المعقول ، وإن كان الوقت لم يعطلها بالتردد والتحير كالمعهود فى أشباهها ونظائرها ، فقد تم إعداد الحل السمح ، وسرعان ما نزل من السماء على لسان محمد ، ومضى أتباعه فى الطريق المستقيم

ذلك بأن دعوة الإسلام ليس لها أن تنحدر إلى مخلفات الجاهلية فتقاوم الإساءة بالإساءة ، وتقابل العدوان بمثله ، وإلا كان دين الاسلام متناقضا مع نفسه : يتنزى الدم من يديه ، وتتساقط الأشلاء من بين شدقيه

والحل الذى يستقيم مع روح هذا الدين هو « الهجرة » المرسومة فى بدئها وختامها المليئة بمدخراتها للتاريخ إذا أعوزه الكشف عن مواطن العبرة ، ومظان الفخار ، وليس بدعا من الأحداث أن يهاجر محمد ، فقد سبقه لوط إذ هاجر بأهله ونزل بهم بالمؤتفكة . ولكن ما أصعب الهجرة من الوطن على المواطن المضيم

فما بال محمد وتابعيه تهون عليهم مكة ، وفيها بيت الله الحرام وبها الأهل والولد ؟ ألم يقف محمد فى وسط المجلس يوم خرج مهاجراً ، والتفت إلى الكعبة فقال : « إنى لأعلم ما وضع الله بيتا أحب إلى الله منك ، وما فى الأرض بلد أحب إليه منك ، وما خرجت منك رغبة ، ولكن الذين كفروا أخرجونى »

وأمعنت قريش فى الأذى والفتنة من كل وجه ، ولما شكا المسلمون إلى نبيهم وقد ضاقوا ذرعاً قال لهم « تفرقوا فى الأرض فان الله تعالى سيجمعكم » وأمرهم بالخروج إلى الحبشة « فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد » وخرج حزب الله

وتهامس الأغرار : إنه فرار ، واستدرك الدهاة : بل استنصار . حقا ، إنه فرار بالأمانة خشية الضياع ، لهذا قال النبي الرسول « من فر بدينه ، من أرض إلى أرض ، وإن كان شبراً من الأرض استوجب له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبرهيم خليل الله ، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم » ، وحقا إنه استنصار للدعوة من أتباعها فيما وراء الحدود ، ولكن هل سكنت ثائرة من قال إنه فرار ، وهل

أجدى دهاء القائلين بأنه استنصار

وفر أبو بكر بدينه يعبد الله بأرض اليمن ، لولا أن أخذ ابن الدغنة له الجوار من (القارة) شارطين عليه أن يتعبد بداره ولا يستعلن ، ولان أبو بكر فقبل ورجع فابتنى فى داره مسجداً أخذ يصلى فيه ويقرأ القرآن ويرفع صوته ، والبكاء يغالبه ، والناس يتهافتون عليه مسلمين من كل صوب ، فلما كلمه صاحب الجوار قال له : « رددت عليك جوارك ، ورضيت جوار ربى »

وضربت قريش الحصار على شعب أبى طالب فلم يتمكن أهل النبى من البيع والشراء والمصاهرة ، وأضر الجوع بهم ، ولاسيما بزوجه خديجة ، وكادوا يهلكون من عند آخرهم ، وبعد موت خديجة وأبى طالب اشتد الأذى ، وأخذت المؤامرات تدبر فى الظلام لاغتيال محمد .

هذا وهو ماض فى سبيل الدعوة ، لا يمل من لقاء الحجيج فى المواسم ، والاستكثار من القبائل ، بينما فراعنة قريش يحاربونه بكل ما يسعفهم به قلوب مريضة ، ونفوس منحلة ، ومفاسد مستحكمة ، والأصنام تستبد بعقولهم أيما استبداد

وما يكون لنبى السلام أن يهدم السلام ، وما ينبغى لمنطق الغريزة القاتلة أن تستثار فلا تستجيب ، ولكن التسامى بها هو للطلب الكريم ، والأمنية الكبرى ، فما هو إلا أن تراكض المسلمون مهاجرين إلى يثرب تاركين المال والعيال ، لم يجردوا سيفاً ، ولم ينتكبوا رمحاً ، بل تجردوا للسلام ، إلى حين ينتظم السلاح فى أيدى الخصوم ، وحاشا لأهل الإيمان أن يطلبوا الثأر على نحو لا يشرف أقدامهم

لهذا قال أبو أحمد بن جحش فى هجرته :

فكم قد تركنا من حميم مناصح
وناصحة تبكى بدمع وتندب
ترى أن وتراً نائياً عن بلادنا
ونحن نرى أن الرغائب تطلب

واجتمعت بدار الندوة نزعات إبليس بنزوات الجبت والطاغوت ، وانطفأت فى الحال جذوة التدبير ، وانقطع حبل التفكير ، فما كان اجتماع قريش هناك إلا لاغتيال محمد ، وذلك أيسر ماينتظر من أصحاب الفراغ ، بل هو الشىء الذى لاتسعفهم الغريزة بما فوقه

ولا أقل من أن يجد العدو مصرفاً للضغينة المكتومة فيا دون غرضه المأمول ، أما إذا تركوا محمداً فى وجهه إلى يثرب ، فإن له بها أنصاراً ، وأنهم لناصروه ، وإنه لفاتح بهم مكة على أهلها عاجلا أو آجلا

ياله من يوم ! كما تحكى من خيالهم وتحدى كيدهم ، لايستطيعون له صرفا ، ولا يزيدون معه إلا تضييقاً على محمد وتنكيلا بمن سلك سبيله

خرج صهيب الرومى بماله فخيروه بين نفسه وماله ، فهجر المال ، وهاجر بالنفس ، وربح صهيب على كل حال ، وخسر هنالك المبطلون . وخرج أبو سلمة ، ولما أرادت صاحبته أن تلحق به ومعها طفلها ، خيروها بين ابنها ونفسها ، فتركت فلذة من كبدها فى أيديهم ، وخرجت مؤمنة بأنه وديعة فى يد الله ، وفتنوا من فتنوا ، وحبسوا من حبسوا ، ولو لم يكونوا قد انشغلوا بهذا القليل لتبددت الهجرة تحت هاتيك الضغوط ، ولفظت الدعوة آخر أنفاسها

وأطلع الله رسوله على دار هجرته ، فأخبر بها صاحبه أبا بكر الصديق الذى طالما كان يستأذنه فيستأجله النبى حتى أراد الله لها « صحبة » فى الهجرة الكبرى إلى الله ، وأعد أبو بكر ماله كله ليهاجر معه ، وتواعد مع النبى على ساعة الخروج من الليلة الفارقة بين العدوان والأمان ، الفاصلة بين الشر المهجور والخير المراد

وتسجى على بالبردة الحضرمية الخضراء ، وتوسم حزب الضلال باب الدار ، وسهدوا أجفانهم ، وكدوا أذهانهم ، فما هى إلا الخيبة التى لابعدها ، على الرغم من الصفوف والسيوف ، وما هو إلا نصر السماء (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

ولبثا ثلاثاً بغار ثور ، والطلب لا ينقطع ، وكان أبو بكر يسمع القوم يتهامسون ويتخافتون ، فيأخذه الخوف من كل سبيل ، ولكن الذى أعمى بصائر الكفار عند خروج النبى من الدار هو الذى ضلل حدسهم وهو فى الغار (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

وخرجا من غار الخفاء إلى نهار الجلاء ، ومضيا على راحلتيهما بين تصويب وتصعيد ، وكلما رأى أهل البادية أبا بكر سألوه عن هذا الرجل الذى معه فيقول لهم فى تورية صادقة (هذا الرجل يهدينى السبيل) ، فلما وصلا إلى الجحفة تحرك الحنين إلى مكة

في جوانح نبي الوطنية ، فتذكر ما كان من قريش معه وهو يدعوهم إلى ربهم ، ومن ثمت نزل عليه جبريل بقوله به (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)

ولم يمض على رحيلهما ثمانية أيام حتى أشرف النبي على المدينة فقابله أهلها ، والبشر تندى به وجوه الرجال ، وبالغناء تتجاوب دفوف الجواري ، وبالشعر تتعالى أناشيد الفتيان ، وبالحراب تتنوع ألعاب الأحباش

والأنصار يتسابقون إلى خطام الناقة ويقولون : «هلم يارسول الله إلى المنعة والقوة» وهو يقول لهم «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»

ولم تلبث إلا قليلا حتى أناخت ، لا في (المنعة والقوة) ولكن في مبرك «الأمن» ومناخ «السلام» حيث المربد الذى لسهل وسهيل ابني عمرو والذى اختاره نبي السلام ليكون منذ الساعة الأولى له بالمدينة دار السلام

وتفرق المهاجرون على دور الأنصار ، ونزل النبي مع رحله عند أبي أيوب الأنصاري، واجتمع بهم جميعا بدار سعد بن خيثمة، وأعلن «دستور السلام» منذ اللحظة الأولى فقال :

«يأيها الناس ، أفشوا السلام ، وصلوا الأرحام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»

وأسرع إلى موادعة يهود المدينة ليستل السخيمة من نفوسهم فلا يمكروا صفو السلام ، وعقد معهم معاهدة كتب في ختامها «وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم» فكان له الأمان ولليهود التأمين ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه

ثم التفت إلى الجماعة ينظم أمرها ، ويجمع شملها ، ويؤلف وحدتها ، فابتنى «المسجد» ليكون عتابة دار السلام لطلاب السلام ، وكان بناؤه نقطة التقاء الهجرة والنصرة ، فسرعان ما أصلح النبي فيه العلاقات بين الأوس والخزرج ، وعجلان ما نزل فيه التأييد من السماء «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين»

ودوى صوت بلال بالأذان للصلاة فكان دعاية لانتصار الهجرة وإذاعة لانتشار التوحيد ، ومتى جلجلت البطاح بصوت «الله أكبر» وتجاوبت بصوت «لا إله إلا الله» عرف كل من لا يعرف أن هذه الهجرة الكبرى إنما جاءت لتوحيد الصفوف، ووحدانية المعبود ، ووحدة الكلمة ، وتلك هي العناصر الأساسية التي لابد من أن يتألف منها السلام

وتتابع المهاجرون أرسالا، والمسجد يغص بهم يوما بعد يوم والمسلمون والمؤمنون أخوين أخوين سواء في الهجرة أو النصرة وإنه ليوم خالد إذ يجتمع بهم نبيهم في هذا المسجد المبارك، ويسأل عنهم ، فلم يزل يتفقدهم ويبعث إليهم حتى انتظم شملهم ، ثم قال لهم :

— «إني محدثكم بحديث فاحفظوه وعوه وحدثوا به من بعدكم ، إن الله تعالى اصطفى من خلقه خلقا ، ثم تلا (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وإني أصطفى منكم من أحب أن أصطفيه ، وأؤاخي بينكم كما آخى الله تعالى بين ملائكته.. قم ياأبا بكر ..» ، وقام أبو بكر فجثا بين يديه فقال له

— : إن لك عندي يدا ، الله يجزيك بها ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذتك خليلا، ولكن أخوة الإسلام أفضل ، فأنت مني بمنزلة قميصي من جسدي» . وحرك النبي قميصه بيده . — «إدن ياعمر ..» فدنا ، فقال له النبي :

— : «كنت شديد البأس علينا يا أبا حفص فدعوت الله أن يعز بك الدين أو بأبي جهل ، ففعل الله ذلك بك ، وكنت أحبهما إلى الله ، فأنت معي في الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة.»

وآخى بينه وبين أبي بكر في المسجد الذى أصبح بيت المحبة والتعارف، وسار المسلمون أرواحا مجندة : إلى الله أسلمت الوجوه ، وإلى الكعبة توجهت القلوب ، وخلف رسول الله انتظمت الصفوف

وأقبل سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف وقال له : يا أخي إني من أكثر الأنصار مالا ، فأنا مقاسمك ، وعندي امرأتان فأنا مطلق إحداهما ،فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له عبد الرحمن وقد هاجر ولا مال ولا أهل : يا أخي بارك الله لك في أهلك ومالك

كل ذلك من إشعاع الإيمان الذى انبثقت عنه الهجرة، ومن وحي المسجد الذى قال فيه النبي الكريم «من ألف المسجد ألفه

الله » ، وقال « إن للمساجد أوتادا : الملائكة جلساؤهم ، إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا فى حاجة أعانوهم ، جليس المسجد على ثلاث خصال ، أخ مستفاد ، أو كلمة حكمة ، أو رحمة منتظرة »

وتفيأ النبى ظلال السلام وارفة منذ نزل بين الأنصار ، لذلك قال فى مقام الذكر والشكر « لولا الهجرة لكنت من الأنصار » الذين نصروه وأكرموا من معه « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .. »

ويتأكد هنا لكل منصف أن الهجرة الكبرى لم تكن إلا إسراء بالأرواح قبل أن تكون انتقالا بالأشباح ، وبذلك تميزت « الهجرة الكبرى » إذ ارتفعت فيها الإنسانية من الهاوية إلى العالية ، وخلفت فيما وراءها غريزة الوحش ، وشريعة الغاب ، ومضت فى تصعيدها إلى القمة ، وصدق الشاعر

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالدون من كان دونا

وسئل النبى : ما أفضل الايمان ؟ فقال : « الهجرة ». فسئل وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء ». لهذا هجر المسلمون عناصر السوء قبل أن يهاجروا من الضلال والعدوان فى بلد أراد الله فيه للناس الأمن والسلام ، وفيه البيت الحرام ، (ومن دخله كان آمنا)

وظل النبى يحرس السلام ، فى يقظة وحكمة ، فقد قتل قتيل بالمدينة ولم يعرف قاتله ، فصعد النبى المنبر وقال « يا أيها الناس يقتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله ، لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء »

ومر شاس بن قيس حبر اليهود بالأوس والخزرج وقد اجتمعت كلمتهم ، فغاظه ذلك الائتلاف بينهم فقال : قد اجتمع بنو قيلة ، والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، وأمر فتى من اليهود بالدس بين الأنصار ، وإثارة ما كان بينهم من مقاولة ومصاولة يوم بعاث ، وظل بهم حتى تنازعوا وتواعدوا على الحرب ، وخرجوا بالسلاح واصطفوا للقتال

وعلم بذلك حارس الأمن وحامى السلام ، فخرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين وقال : « يا معشر المسلمين ، الله الله ، اتقوا الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم .. »

فعرفوا أنها من نزغ الشيطان وكيد العدو ، فبكوا وتعانقوا ثم انصرفوا مع النبى وقد نزل عليه (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وإذ يقول نبى الرحمة « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض » إنما يدل على أن الكفر هو العدوان وأن الإخاء هو السلام بل الاسلام الذى هو أن يسلم لله قلبك وأن يسلم الناس من لسانك ويدك »

ومضى على النبى عامان نشر فيهما لواء السلام على أهل المدينة واطمأنت فيها النفوس ، وأصبحت آيات القرآن تخاطبهم (يأيها الذين آمنوا) وقد كان الخطاب بمكة « يأيها الناس » فما كان هذا التغير إلا عقب الهجرة التى تصافت فيها الصدور ، وتوارت الشرور

فلما تألب اليهود والمنافقون والمشركون على دعوة السلام ، لم يكن بد من أن يتنزل على محمد الإذن بالجهاد (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وإن الله على نصرهم لقدير) فكان الجهاد من لزوم ما يلزم السلام ، شأنه فى ذلك شأن الصفاء لا يرتجى إلا فى غمرة العواصف والأعاصير ، ولابد دون الشهد من إبر النحل

واليوم ونحن على باب سبعين عاما بعد ثلثمائة من هذه الهجرة الكبرى ، نرى أن فيها للعالم كله العبرة كل العبرة ، فما أحوج الانسانية إلى هجرة السوء من كل لون ، ونصرة الحق فى كل حين ، ودفع الشر والخصام بنشر الخير والسلام

محمد محمود زيتونه

أبو دجانة

للأستاذ محمد طلبه رزق



يطيب للمسلمين في ذكرى مولد الرسول أن يذكروا روائع أحداث الجهاد الأولى التي صاحبت الدعوة للاسلام واقترنت بآيات من العبقرية أو التضحية أو البطولة . ولعل حياة أبي دجانة البطل الفدائي من أخلد هذه الروائع وأبعدها أثراً في القلوب والنفوس

وعلى أن تاريخ الجهاد الاسلامي مليء بالبطولات الفذة والتضحيات العظمى والمواقف النبيلة . فإنني أشهد أن حياة أبي دجانة كانت من أعظم ما استهواني وملأ نفسي وقلبي روعة وتمجيدا لهذا البطل الذي أعتقد جازما — إن حقا أو غيره — أن التاريخ قد ظلمه وهضمه إلى درجة تكاد تكون كالنسيان ، وهو الرجل الذي حفظ للمسلمين جميعاً دينهم ، والذي لولاه ولولا فدائيته وبطولته لما تمت رسالة الاسلام . ولرب قائل يقول : وكيف لأبي دجانة هذا أن يحفظ ذلك الدين العظيم ويكون سببا في إتمام رسالته ؟ أكان أبو دجانة هذا شريكا للرسول في تلقي تعاليم الدين ؟ أكان ينزل عليه الوحي كما ينزل على الرسول ؟ أكان الأمين الأوحد والنائب المفرد للرسول يؤثره بأسرار الدعوة ويأتمنه عليها ؟

والواقع أن أبا دجانة كان مسلما من عامة المسلمين تفتح قلبه للدعوة الاسلامية وأشربت نفسه حبها ، وتعلقت روحه بأهدابها. كان أنصاريا من أهل يثرب لبى دعوة الحق ودخل في الدين بعد يقين صادق وإيمان عميق ، وأحب الرسول حبا لا يوصف لفرط صدقه وشدته وإخلاصه . وهو قبل ذلك وبعد ذلك فارس بارع ، خفيف الحركة ، سريع الوثبة ، يجيد المبارزة واللعب بالسيف والخنجر كما يجيد فنون الحرب الأخرى التي عرفها العرب آنذاك . وحين قرر النبي صلوات الله عليه . العمل على نشر الدعوة بقوة السيف ومقابلة عدوان جاحديها بمثله ، كان أبو دجانة من المسلمين الذين خفوا لتلبية دعوة الجهاد ونفروا سراعا إلى ميادينه ، لا تقعدهم امرأة ولا ولد ، ولا تلهيهم تجارة أو بيع ، ولا يعوقهم تردد أو خور ، ولا يخذلهم ضعف أو وهن

وتسجل هذه الغزوات وتلك الحروب ألوانا من المجد والبطولة والفدائية للمجاهدين المؤمنين وإذا أبو دجانة في طليعة هؤلاء المجاهدين المؤمنين الأحرار ، يمتاز ببسالة نادرة وشجاعة فذة . ولم الحديث ولم الوصف وهـذه وقعة أحد الخالدة تنطق شاهدة بما لهذا البطل الفدائي العظيم من صفات ، هذه الواقعة التي أعدت لها قريش ما استطاعت من قوة وبأس وحشدت لها ثلاثة آلاف من المشركين ، لتثأر لقتلاها في غزوة بدر ، في حين كانت قوات المسلمين ألفاً من الجنود تخذل منهم من المنافقين والضعفاء ما يقرب من ثلثهم

وينظم النبي جنوده ويجعل منهم رماة يحمون مؤخرة الجيش ويجعل مكانهم على الجبل ويقول لهم : (قوموا على مصافكم هذه، انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا قد هزمنا القوم وظهرنا عليهم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم) . ثم يلتفت القائد الأعظم والزعيم المقدس إلى جنوده الآخرين يبثهم روح الإقدام والتضحية ، ويزودهم بنصائحه ويملي عليهم توجيهاته وإرشاداته

ولا يدع سبيلا إلى حفزهم وتشجيعهم إلا سلكها؛ فهذا هو صلى الله عليه وسلم يرفع سيفه بيمينه ويعرضه على جنوده قائلا: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ ويتهافت المؤمنون عليه، كل يبغي هذا الشرف الرفيع، حتى ينبري له أبو دجانة متحمسا مندفعا فيقول عمر: هذا أبو دجانة الشجاع يقوم إليه، فيقول أبو دجانة: نعم أنا أقوم إليه، ما حقه يا رسول الله؟. ويجيبه النبي العظيم: أن تضرب به حتى ينحني. فتزداد حماسة البطل ويردد أنا آخذه يا رسول الله بحقه. ويسر النبي لهذه الحماسة ولا يملك إلا أن يناوله السيف. ويتناول الفارس الشجاع السيف في فرح وثورة ويهزه في يده مردداً:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكبول أضرب بسيف الله والرسول

ويخرج من جيبه عصابة حمراء يعصب بها رأسه ويختال بين الصفوف كأنما هو يرقص؛ ويعجب المسلمون لنشوة الفارس وفرحته بسيف الرسول

وتبدأ المعركة بمبارزات فردية يكون صرعاها جميعاً من قريش الباغية، ثم ما يلبث الجيشان أن يلتحما، وما تلبث قوات المسلمين أن تتقدم منتصرة مثخنة في جيوش العدو وأبو دجانة في فرسان المؤمنين يتغنى بشعره، ويضرب بسيف الرسول يمنة ويسرة ما تنبو له ضربة، ولا تخيب له طعنة، صرعاه يتجندلون ويخرون عن يمين وشمال.. وتتراجع قوات قريش مروعة منهزمة متخاذلة وترى نساء المشركين تراجع رجالهن وهزيمتهم فيصحن فيهم بحماسات حافزات تتزعمهن هند بنت عتبة الموتورة في أبيها أحد قتلى بدر:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وأبو دجانة يصول ويجول في الصفوف يصرع المشركين ويروى بدمهم الأرض، وتعترضه هند هاتفة محرضة المشركين ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار ضربا بكل بتار

ولا يكاد يميزها إن كانت رجلا أو امرأة فيهم بقتلها، فتصيح مذعورة: ويلاه. وما إن يتميزها أبو دجانة حتى ينحيها عن سبيله قائلا: امضي أني اذهبي تبحك الله. ويقول له الزبير: بل اقتلها يا أبا دجانة، فيرد أبو دجانة الفارس الباسل أو ترد رجولته الكريمة: إني أكرم سيف رسول الله أن أضرب به امرأة

وتسير المعركة قوية ملتهبة نحو غايتها، وتكاد تنجلي عن نصر للمؤمنين مبين، وفوز لهم محقق، ولا يكاد يشك ذو عقل أو بصر في أن الهزيمة الساحقة الماحقة ستحل على جيوش الملحدين؛ وتؤيد جميع الشواهد والقرائن هذا النصر وتقره، ويتضخم هذا الشعور بالنصر في قلوب المسلمين ويؤمنون به، ويتأذى المشركون وتغلي قلوبهم بالحسرات واللوعات بعد أن رأوا معركتهم التي تأهبوا لها واتخذوا لها أعظم العدة ووطدوا عزائمهم على أن يجعلوها انتقاما ومحوا للعار الذي لحقهم في بدر، تدور عليهم وتنقلب ضدهم ولكن. ولكن — ولعن الله لكن هذه — هاهي فصيلة الرماة المسلمين التي ناط بها قائد المسلمين وزعيمهم الرسول حماية المؤخرة ترى أفرادها انتصار إخوانهم وتقهقر المشركين أمامهم تاركين متاعهم وعددهم غنائم وأسلابا. وهاهي الغنائم والأسلاب تلمع في أعين هؤلاء الرماة فتسيل لعابهم ويجعلهم يفكرون فيها وفي موقفهم هذا الثابت، وفي تلك الأوامر الحاسمة الصارمة الموجهة إليهم بضرورة ثباتهم مهما رأوا من انتصار جيشهم وتقهقر عدوهم. ولكن أية نفوس تلك التي ترى هذه الغنائم والأسلاب الكثيرة الوفيرة وترى هذا التقهقر، وترى أكثر من هذا وذاك إغراء الشيطان، ووراء الحياة يساق هينا لينا ليس بينهم وبينه إلا أن يتحركوا وينقضوا لتحفظ لهم حقوقهم وأنصبتهم من أن ينتالها رفاقهم المنتصرون أو أن يبخسوهم بعضها. وما هي إلا أن تضعف نفوسهم وينتصر الشيطان وتبرق الدنيا في عيني أحدهم فيصيح من أعماقه: الغنيمة.. وتهز صيحته بقية الرماة.. وإذا هؤلاء الرماة حماة المؤخرة، يخالفون عن أمر قيادتهم، لا رغبة في العصيان والمخالفة، وإنما إيمانا خاطئا بأن النصر قد صارف جانبهم

ويندفعون جاعلين همهم جمع الغنائم والأسلاب من متروكات جيش المشركين المنهزم

وفى المشركين يقظة وحسرة ، وفى قلوبهم نار تأجج حقدا وحفاظا لأهليهم وعشيرتهم الذين ذهبوا فى بدر ، وإذا هذه اليقظة وذلك الحقد يبصرانهم بالثغرة الجديدة التى انفتحت فى مؤخرة المسلمين المنتصرين ، وإذا فلولهم تتجمع وتحتشد وتتجه نحو الثغرة !

ويريد الله أن يمتحن المسلمين ويبلوهم ، وأن يجزيهم جزاء مخالفتهم ، ويريهم عاقبة عصيانهم لأوامر قائدهم ورسولهم ، ويبصرهم بخطئهم وطمعهم فى عرض الدنيا الذى رجوه ، وهم المؤمنون الذين خرجوا من ديارهم وأهليهم قد بايعوا الله ورسوله أن ينصروا دينه وباعوه أرواحهم بأن لهم الجنة وليس أسلاب الحرب وغنائمها .. يريد الله ذلك ، ويشاء الله إلا أن تكون إرادته تلك رائعة قاسية بعيدة الأثر فى نفوس المسلمين جميعا ، ويتمثل كل ذلك فى أن يمكن لفلول قريش المتجمعة من أن تنفذ فى جيوش المسلمين من الثغرة التى كشفها الرماة فى المؤخرة ، وأن تنال قريش الباغية المشركة منهم وتثخن فيهم

ويرى النبي صلى الله عليه وسلم هجمة الأعداء المفاجئة من الخلف ، فيدرك سريعا خطيئة الرماة ويعرف من أين أتى الشر ، وكيف انهارت الخطة الحكيمة التى وضعها وأمر بها . ويرتاع المسلمون ويأخذهم الروع والجزع ويظنون أن جيوشا أخرى جديدة للمشركين قد أخذتهم من خلف فيضعفون ويضطربون ويدب الفزع بينهم ، فيفر منهم من يفر ، ويتخاذل منهم من يتخاذل ، والنبى العظيم يستنفرهم ويثبتهم ويعدهم النصر ، وينادى فيهم أن اثبتوا وكافحوا ، ولا يدع سبيلا لحفزهم ودفعهم للصمود والجلاد دون أن يسلكها ! .

ويكثر عدد القتلى والجرحى من المسلمين ويسقط فيهم أعلام من فرسانهم الصناديد ويشاء الله إلا أن تبلغ العظة والعبرة أعظم مبلغ وأروعه حين يبقى الرسول فى عشرة من صحبه ينافحون معه وهو يرمى بسهمه حتى يصير شظايا .. ويقترب المشركون منه ودونه اثنان سعد بن أبى وقاص ومصعب بن عمير يذودان عنه وأم عمارة المسلمة المؤمنة تقبل فترى ذلك فترمى سقاءها وتنتزع سهم أحد القتلى وتنفح به عن الرسول العظيم .. ويقبل أبو دجانة فأى إقبال هذا ؟ إنه إقبال البطل الذى حارب بسيف الرسول وأدى حقه فقاتل به حتى تقوس ، وحتى امتلأ جسمه بالجراح والطعنات .. ويرى أبو دجانة النبى الكريم فى هذا الموقف العسير ويرى أحد المشركين الأنذال وهو يضرب أم عمارة المرأة المسلمة على عاتقها فيرديها ! .. ويهم أبو دجانة لينافح عن الرسول ، وكيف له ذلك وسيفه قد انحنى وتقوس ، وجسمه قد عزق وتجرح ، ولكنه يرى النبى الكريم هدفا لنبل الكافرين الفاجرين ، ولكنه يريد أن يسجل أروع أمثال التضحية والفدائية أعظم تسجيل وأدقه ، فها هو يندفع نحو النبى العظيم وينكفئ عليه حاميا له بجسده متوسلا إليه بقوله : دعنى يارسول الله أترس دونك بنفسى ، لقد ولى الناس عنك وهذا نبل العدو يصل إليك . ويقول له الرسول العظيم مشفقا : إن النبل يقع فى ظهرك . ولكن أبا دجانة المسلم الصادق الإيمان والفدائى الذى باع روحه ونفسه لله لا يحس الما للرميات الكافرة المجنونة ويستعذبها ويرد على النبى العظيم بآخر ألفاظه : لا بأس . ويظل ظهر أبى دجانة يتلقى النبل حتى يمتلئ ، وحتى لا تبقى فيه نقطة واحدة دون إصابة قاتلة ! ..

ويتأذن الله أن تمر المحنة القاسية والدرس الرادع ، وتنجلى معركة أحد الخالدة وقد نجا النبى العظيم من القتل فسلم للمسلمين بنجاته دينهم ، وتمت بذلك للمؤمنين رسالتهم ، وكمل دينهم ، وبلغ الكتاب أجله بعد العظة الرهيبة العميقة التى كان من أعظم آثارها فدائية هذا الإنسان الفذ أبو دجانة ..

قلت لصاحبى وهو يتحدث كالسيل المنهمر وحديثه يفيض من أعماقه : حسبك ياصديق فقد والله بلغت بحديثك هذا من نفسى ومن قلبى أعظم وأبلغ وأروع ما يمكن أن يبلغه أكبر الدروس وأخطر العظات ، وما أرى إلا أنك محق فى لومك للقائمين على شؤون التعليم والتثقيف والتجنيد أكبر اللوم لنسيانهم تخليد ذكر هذا البطل الفدائى والمثل الحى الذى يظل حيا مدى الدهور ...

محمد طاية رزق

مطبعة الرسالة